

١٥٥٥  
١٥٥٥  
١٥٥٥

جامعة النجاح الوطنية  
كلية الدراسات العليا  
قسم اللغة العربية

# النظم القرآني في سورة يوسف - عليه السلام -

إعداد

جمال رفيق يوسف الحاج علي

إشراف الدكتور

خليل عودة

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة

الماجستير

نابلس - فلسطين

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نوقشت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها . بتاريخ ٢٠٠٠/٤/٥ م . وأجيزت بنجاح .

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

فكره

د. خليل عودة (مشرفاً)

عنه / فكره

د. صادق أبو سليمان (عضواً)

[Signature]

أ.د. يحيى جبر (عضواً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

( إِنَّهُ يَقُولُ هَٰذَا لَمَّا أَنزَلَ الْقُرْآنَ بِالْوَحْيِ أَلَمَّا  
الْقُرْآنَ )

[يوسف: ٣]

## الإهداء

- إلى والدي ... الذي كان يجد رحيق متعته في المعاناة من أجلي، وقبيل قطاف الجنى، لبي نداء ربه راضياً مرضياً
- إلى والدتي ... نبع الحنان، ورمز العطاء .
- إلى زوجتي (أم محمد) التي سهرت ليلها، وبذلت كل ما في وسعها، في سبيل إنجاز هذا البحث . ٥٦٥٤٦٩
- إلى أخواتي ..... فاطمة، ومنى، وحنان، وأحلام .
- إلى الطفلة الحبيبة .... عائشة .
- إلى أسرة مدرسة جيت الثانوية .

شكر وتقدير

إلى أستاذي الفاضل الدكتور خليل عودة  
الذي أولاني رعاية خاصة، وتفضل بالإشراف  
على هذا البحث، فكان لي نعمة الطون والسند  
بعد الله سبحانه وتعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد .

فخير الدراسات والبحوث ما كان مجالها كتاب الله تعالى (القرآن الكريم)، تفسر آياته، وتبين أحكامه وتُعرب ألفاظه، وتتذوق بديع نظمه وبلاغته .

ولذلك كان للغة العربية شرف كبير، استمدته من كونها خادمة للقرآن، حاملة لعلومه، ناقلة دروسه وعبره، ومن أجل هذا تنافس العلماء في البحوث والعلوم العربية، التي تتناول إعجاز القرآن، وبيان ألفاظه، وما ينتج عن ذلك من أحكام وشرائع.

وقد وجدت في (القرآن الكريم)، ضالتي، إذ دفعني نظمه العجيب المعجز إلى البحث فيه؛ لأقف على نزر يسير من أسرار هذا النظم القرآني من خلال سورة يوسف -عليه السلام-.

وهذا البحث دراسة تطبيقية للعناصر النظمية في السورة الكريمة، من خلال رصد الظاهرة اللغوية (الأسلوبية)، في آيات السورة وتحليلها وفق سياقها، وما تؤديه من معانٍ بلاغية، ومقاصد أسلوبية.

وقد اعتمدت على الدراسات البلاغية القديمة، لا سيما نظرية عبد القاهر، مع محاولة ربطها مع الدراسات البلاغية الحديثة.

وجاء البحث مشتملاً على تمهيد، وثلاثة فصول وخاتمة. أما التمهيد، فعرضت فيه للسورة الكريمة من حيث اسمها، ومناسبتها، وعدم تكرارها، والدراسات السابقة، ودراستي وما فيها من جديد.

ثم خصصت الفصل الأول لدراسة " ماهية النظم "، دراسة نظرية، تحدثت فيه عن مفهوم النظم في اللغة والاصطلاح، ودراسات السابقين، وما حوته من

آراء حول نظرية النظم، حتى اكتملت ونضجت على يدي عبد القاهر الجرجاني، وتناولت أخيراً آراء الباحثين المعاصرين في هذه النظرية، وأثرها في الدراسات اللغوية والنقدية الحديثة.

ثم أردفت الفصل الأول "بالفصلين الثاني والثالث"، وهما محورا الدراسة التطبيقية وجوهرها في آيات سورة يوسف - عليه السلام - .

**الفصل الثاني** - من الدراسة التطبيقية، حمل عنوان (من أساليب الجملة الخبرية في سورة يوسف). تحدثت فيه عن بناء الجملة القرآنية بحسب المعطيات اللغوية التي تشكل ظواهر تعبيرية "كالتوكيد، والتكثير، والتعريف، والتقديم والتأخير، والحذف".

**أما الفصل الثالث** - فكان بعنوان (من أساليب الجملة الإنشائية الطلبية في سورة يوسف) وقد برز من أساليبها (الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء) والتي خرجت عن أصل وضعها النحوي إلى أغراض بلاغية، ذات دلالات معنوية، وإحياءات نفسية عميقة.

وأخيراً، أثبتت في نهاية البحث أهم النتائج التي توصلت إليها. أما مصادر البحث ومراجعته فمتعددة، أهمها كتب التفسير المختلفة، ومؤلفات من اللغة والبلاغة - قديمها وحديثها - .

وفي ختام هذه المقدمة، لا أزعم أنني تناولت جميع الظواهر التي تتصل بالإعجاز النظمي في السورة، فما عرضته لا يعدّ قطرة، من محيط هذه السورة، فأمامي كلام الله - عز وجل -، الذي لا يحيط بأسراره إلا هو سبحانه، فلا نهاية لفهم كلامه، وما قدمته هو ما فتح الله به عليّ، والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما سعيت إليه لما رجوت، وهو خدمة كتاب الله تعالى.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات.

تمهيد : سورة يوسف - عليه السلام -

- اسمها ومعنى آياتها

- أسباب نزولها

- أسباب عدم تكرارها

- الدراسات السابقة حولها



## التمهيد: سورة يوسف - عليه السلام-

الاسم الوحيد لهذه السورة "سورة يوسف". ووجه التسمية ظاهر؛ لأنها قصت خبر يوسف - عليه السلام - كلها، ولم تذكر قصته في غيرها من السور. كما أنه لم يذكر اسم يوسف - عليه السلام - في غيرها، إلا في سورتي "الأُنعام وِغافِر" (١). وآياتها مئة وإحدى عشرة آية. وسورة يوسف مكية، على القول الذي لا يلتفت إلى غيره، "وقد قيل إن الآيات الثلاث الأولى مدنية" (٢)، ورفض السيوطي هذا القول واعتبره "واهياً جداً، لا يلتفت إليه" (٣). وفيما يتعلق بنزول السورة، فقيل: "إن كفار مكة، أمرتهم اليهود أن يسألوا الرسول - صلى الله عليه وسلم، عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر، فنزلت. وقيل تسلياً الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما كان يفعل به قومه من أذى، كما يفعل إخوة يوسف، بيوسف - عليه السلام - وقال سعد بن أبي وقاص: - أنزل القرآن، فتلاه الرسول عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت" (٤).

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنه - أن حبراً من اليهود دخل على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ سورة يوسف، فوافقته على ذلك، وقال له: يا محمد، من علمكها؟ قال: الله علمنيها، فعجب الحبر لما سمع منه، فرجع إلى اليهود، فقال لهم: - والله إن محمداً ليقراً القرآن كما أنزل في التوراة، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه، فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه، فجعلوا يستمعون إلى قراءته - صلى الله عليه وسلم - من سورة يوسف، فتعجبوا وأسلموا عند ذلك" (٥).

ومهما قيل في أسباب نزول السورة، فإن قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) [يوسف: ٧] يكشف عن هدف السورة في العبرة والموعظة لكل من سأل، على مر العصور ولم تتكرر قصة يوسف - عليه السلام - في القرآن على غرار قصص الأنبياء، التي وزعت فصولها على سور القرآن، ليُقدم في كل سورة حلقة من القصة، يستدعيها المقام النظمي.

(١) الآيتان (٨٤)، (٣٤) على الترتيب.

(٢) الأندلسي، أبو حيان: تفسير البحر المحيط، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٣م، ٢٧٨/٥

(٣) السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، د.ت، ١٥/١.

(٤) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ٢٧٨/٥. وينظر: الواحدي، أبو الحسن: أسباب النزول، دار الفكر، د.ت، ص ١٨٢.

(٥) الألوسي، أبو الفضل عمود: روح المعاني، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت - ط ١، ٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ١٢/٣٦٢.

وذكر المفسرون أسباباً لعدم تكرارها، منها، ما ذكره القرطبي من أن " قصص الأنبياء ذكرت في القرآن في مواضع مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، ولقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تسأمل" (١). وكذلك " اختصاص قصة يوسف، بحصول الفرج بعد الشدة، أما قصص الأنبياء فالمقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم " (٢).

ولم تكرر السورة " لاشتمالها على تشبيب امرأة العزيز والنسوة، بأبدع الناس جمالاً، وهو يوسف -عليه السلام-، ويناسب ذلك عدم التكرار، لما فيه من الإغضاء والستر" (٣). ومهما يكن، فإن قصة يوسف تعالج قضايا اجتماعية، منها ما يتمثل في الحقد من جانب الإخوة، على أخيه يوسف، بدافع الغيرة، فأراد القرآن أن تأتي حلقات القصة كاملة في سورة واحدة، لإبراز العواقب الوخيمة للظلم، ولكل من يحيد عن الحب والإخلاص. وكان طابع القصة المتفرد في السورة الكريمة، متناسباً مع عدم تكرارها، إذ بدأت القصة برؤيا يوسف، وانتهت بتأويلها.

ونتيجة لطابع القصة الفريد في أسلوبها، حظيت سورة يوسف بالعديد من الدراسات والكتب، منها كتاب " مؤتمر تفسير سورة يوسف" للشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي -رحمه الله-، وهو كتاب يزيد على الألفي صفحة، اشتمل على العديد من القضايا اللغوية، والفكرية، والتاريخية، والدينية، وتحدث فيه عن طبائع اليهود، وفيه كثير من الاستطراد؛ مما يصعب بسببه تصنيف الكتاب وتحديد وجهته في دراسة السورة.

وألف الدكتور حسن محمد باجودة، كتاب " الوحدة الموضوعية في سورة يوسف -عليه السلام-"، ويبحث الكتاب، كما يظهر من عنوانه في حول إثبات " الوحدة العضوية" (٤) في السورة، باعتبار القصة نسيجاً قصصياً محكماً متماسكاً من أولها إلى آخرها. وقسم السورة إلى شقين، القصصي والتعقيبي، وهدف القرآن فيها إرساء أسس العقيدة، وتسلية المصطفى محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي كان آنذاك بمكة، والكتاب في أربعة فصول، استغرق خمسمائة وإحدى

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد: الجامع لأحكام القرآن، نج: أبي اسحاق إبراهيم طيفيش، ط (٢)، ١٣٧٢هـ، ١٩٥٢م، ج ٩/١١٨.

(٢) الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، نج. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، ط (٣)، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ج ٣/٣٠.

(٣) الألوسي: محمد أبو الفضل: روح المعاني، نج. علي عبد الباري، ط ١، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان. ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ج

٣٦٨/١٢.

(٤) المراد بالوحدة العضوية: أن يكون العمل الفني متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك، بحيث تفضي كل جزئية إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة؛ لأن العمل الفني يستغنى عنها. أو إضافة جزئية أخرى يفقر إليها. ينظر: باجودة، حسن محمد: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، دار الكتب الحديثة - ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ص ٢٥.

وأربعين صفحة، درس من خلالها شخصيات القصة، وأدوارها في سبيل تحقيق الوحدة الموضوعية، وقد خصص الفصل الثالث لدراسة الشخصية المحركة لكل الأحداث، ألا وهي شخصية يوسف -عليه السلام- ولا يغفل المؤلف الجوانب اللغوية للنص القرآني.

ومن هذه الكتب أيضاً كتاب "من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام". للدكتور فتحي عبد القادر فريد، وهذا الكتاب، لا يشتمل على عناصر النظم بشكل بارز، وإنما تطرق إلى تفسير الآيات وتحليلها، والإشارة إلى علوم البلاغة بشكل متداخل ضمن الدراسة اللغوية البلاغية. فالكتاب لا يخلو من فائدة، لكنه لا يشكل دراسة تطبيقية لعناصر النظم في هذه السورة.

أما الكتاب الموسوم بـ "التذوق الجمالي في سورة يوسف"، للدكتور محمد علي أبو حمدة، فهو رسالة صغيرة في حوالي ستين صفحة، وهو دراسة نقدية إبداعية، يتبين المناحي الفنية في السورة الكريمة، ولا يخلو الكتاب من إشارات بلاغية، غير أنه لا يرصد الظاهرة اللغوية، بتمامها في آيات السورة، ليبين دلالاتها البلاغية والأسلوبية.

ومن الكتب التي عرضت للسورة الكريمة باعتبارها مشتملة على قصة يوسف، كتب القصص القرآني، من مثل "القصص القرآني في منطوقه ومفهومه"، للأستاذ عبد الكريم الخطيب، وقد حللّ النصّ تحليلاً إنشائياً، وكتاب "القصص القرآني، أبحاؤه ونفحاته" للدكتور فضل حسن عباس.

كذلك كتاب "سورة يوسف، دراسة تحليلية" للدكتور أحمد نوفل: وهو بحث طويل عرض فيه قصة يوسف من منطلق التفسير والتحليل، ولم يخل الكتاب من لفتات بيانية، وهذا الكتاب يندرج تحت "سلسلة القصص القرآني".

ومهما يكن من شأن؛ فإنّ الكتب التي عرضت للسورة الكريمة كثيرة<sup>(١)</sup>، غير أنّها لم تتعرض بالتركيز على الظواهر اللغوية، ومحاولة حصر الظاهرة، وورودها في السورة لتلمس معانيها البلاغية. وربط هذه المعاني بالشخصية، سواء أكانت متكلمة أو متلقية، وربط ذلك كله بالسياق النظمي للموقف والمقام. وهذا ما سيجاول البحث إبرازه، في الصفحات الآتية، فهو يقوم على دراسة السورة دراسة تطبيقية، بناءً على نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني.

فالدراسة تركز على الجوانب التطبيقي لعناصر النظم المدروسة، بعد ربطها بالمقام، ومقتضى الحال، وما تؤديه من مقاصد أسلوبية تكشف عن خصائص الأسلوب القرآني، في التعبير عن الموقف، وأثر هذا الأسلوب في تحقيق أهداف القصة الدينية والفكرية.

<sup>(١)</sup> ينظر: نوفل، أحمد، سورة يوسف -دراسة تحليلية - ط١، دار الفرقان - عمان- الأردن - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص١٦-١٩.

وإذا كان البحث يدرس الظاهرة اللغوية الواردة في السورة على حدة، فإنّ مبدأ التكاملية في العرض التحليلي أمرٌ لا مندوحة عنه؛ لأنه من الواجب الربط -أحياناً- بين العناصر البلاغية (الظواهر اللغوية) لاستجلاء المقاصد الأسلوبية المتناسقة. مما يجعل المعاني البلاغية خادمةً للمقاصد القرآنية في السورة، لأن إبراز مقاصد الألفاظ، وتسجيل معانيها ومقاصدها، ناتجٌ بالتأكيد من العلاقات بين الكلم وفق قانون النحو وقواعده، وهذا هو عين النظم وجوهره كما يرى عبد القاهر من خلال نظريته، التي أدار إعجاز القرآن الكريم عليها.

# الفصل الأول

## "ماهية النظم"

- مفهوم النظم في اللغة والإصطلاح
  - النظم في الموروث النحوي والنقدي
  - آراء الباحثين المعاصرين في نظرية النظم
- عنيت عبد القاهر

## المبحث الأول -

### النظم في اللغة والاصطلاح

#### أولاً - النظم لغةً:

جاء في معاجم اللغة، أن النظم: أصل يدل على تأليف شيء. منه "نظم الخرز وغيره، ونظم ينظمُ نظاماً ونظاماً، ونظم تنظيماً، والنظم كواكب في السماء تسمى النظم، وهي من نجوم الجوزاء"<sup>(١)</sup>. وقال الزمخشري: "نظمت الدر ونظمتها، ودرٌ منظومٌ ومُنظَّمٌ، ومن المجاز: نظم الكلام، وهذا نظمٌ حسن، وانتظم كلامه وأمره، وليس لأمره نظام؛ إذا لم تستقم طريقته."<sup>(٢)</sup>

إذن النظم في أصل معناه اللغوي يرتبط بدلالة مادية؛ وهذا ليس غريباً، في تطور كثير من كلمات اللغة العربية، من الدلالة المادية إلى الدلالة المعنوية. فنظم الخرز في السلك له مظهرٌ جمالي في حياة العرب، وحاجتهم إلى التزين والتجمل، كما أن رؤية الكواكب التي تبدو للناس كجواهر نظمت في عقد رؤية مادية، تحدث في النفس الراحة والجمال.

كما أن لنظم الشعر، ونظم الكلام دلالة معنوية، انبثقت من الأصل اللغوي المادي.

وجاء في اللسان: "النظم: التأليف، ونظمه ينظمه نظاماً ونظاماً. ونظمت اللؤلؤ: أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر، ونظمتها، ونظم الأمر على المثل. وكل شيء قرنته بأخر، أو ضمنت بعضه إلى بعض، فقد نظمته"....<sup>(٣)</sup> وجاء في القاموس المحيط: "النظم: التآليف، وضم شيء إلى آخر، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظاماً ونظاماً، ونظمتها: ألقه وجمعه في سلك، فانتظم. والمنظوم: الجماعة من الجراد، وثلاثة كواكب من الجوزاء والثريا والدبران"....<sup>(٤)</sup>

وإذا كان نظم اللؤلؤ في الخيط يعني ضم بعضها إلى بعض لتظهر بمظهر جميل؛ فإن ضم الكلمات بعضها إلى بعض، على نسق خاص، في تأليف الكلام للدلالة به على المعاني - هو عين النظم وصورته.

يلاحظ - من خلال المعنى اللغوي الذي أوردته المعاجم للنظم - ضم الأشياء بعضها إلى بعض، وتنسيقها على نحو معين، كما تضم حبات اللؤلؤ في نظام يجمعها على نحو من الاتساق.

<sup>(١)</sup> ابن دريد، محمد بن الحسن: جهرة اللغة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد - الهند، ط ١، ١٣٤٥هـ، مادة: نظم.

<sup>(٢)</sup> الزمخشري، جار الله: أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤١هـ - ١٩٢٣م، مادة: نظم.

<sup>(٣)</sup> ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، مادة: نظم.

<sup>(٤)</sup> الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط، المطبعة الحسينية المصرية - القاهرة، ط ١، ١٣٣٠هـ - مادة: نظم.

ويحمل المدلول اللغوي للنظم - أيضاً- ملحظاً ابتدائياً يتضمن دلالة من دلالات النظم الكلية، التي اتسقت لتأليف مفهوم النظم في صورته الاصطلاحية عند الجرجاني. ويطلق على الشعر:-النظم؛ لاتصاله، يقول الجوهري:-"ومنه نظمت الشعر ونظّمته"<sup>(١)</sup>، وهو الكلام المقفى الموزون الدال على معنى. وعَلَّ ابن سيده سبب تسمية الشعر بالنظم بقوله:-"قيل للشعر نظم؛ لاتصاله واتساقه"<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً - النظم اصطلاحاً:

اعتمد الجرجاني (ت ٤٧١هـ) في تعريف النظم على المعنى اللغوي فيقول:- "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت؛ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك؛ فلا تخل بشيء منها"<sup>(٣)</sup>. فعبد القاهر يرى أنّ النظم تأليف الكلام وفقاً لأبواب النحو المختلفة، وبيان ذلك أننا حين ننطق بالكلمات والجمل، فلا بد أن تكون مرتبة ترتيباً مقبولاً معقولاً.

المعروف في علم النحو أن الفعل لا بد له من فاعل يوقع منه الفعل، وقد نرى الخبر يتقدم على المبتدأ، أو المفعول يتقدم على الفعل، وحينما نبحث عن سر هذا التقديم، فإننا نجد أن الأمر ليس جزافاً، ولا بد من غرضٍ وسببٍ من أجله كان هذا التقديم للخبر على مبتدئه، وللمفعول على فعله؛ لذلك يرى عبد القاهر - رحمه الله - أننا حينما ننطق بأي جملة، ونركبها من كلماتها؛ فإن هذا التركيب ناشئ - أولاً قبل كل شيء - عن المعنى الذي هيأناه في نفوسنا وأردنا أن نعبر عنه بهذه الألفاظ.

ويقول الجرجاني عن النظم في موقع آخر:- "فليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تتناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"<sup>(٤)</sup>. النظم إذن لا بد له من أمرين: "المعنى الذي نريد التحدث عنه، ثم اللفظ الذي نعبر به عن هذا المعنى، فإذا اختلف المعنى الذي نريد التعبير عنه، فلا بدّ من أن يختلف اللفظ، حتى إن كانت مادته واحدة. هناك إذن الصورة، والمعنى الذي نعبر عنه بهذه الصورة"<sup>(٥)</sup>. فالنظم يقتضي ترتيب الكلام، وأنت تتنطق به قد صنمّ تصميمياً تاماً؛ ليوافق المعاني التي تريد أن تعبر عنها .

(١) الجوهري، إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، تج. أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي-القاهرة د.ت، مادة: نظم.

(٢) ابن سيده، أبو الحسن: المحصن، المطبعة الأميرية-بولاق، ١٣١٦هـ، ط١، مادة: نظم.

(٣) الجرجاني: دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٣، ١٤١٣-١٩٩٢، ص٨١.

(٤) المصدر السابق: ص٤٩-٥٠.

(٥) عباس، فضل: البلاغة فنونها وأنها - علم المعاني - دار الفرقان - عمان، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٩م، ص٨٥-٨٦.

عندما يسأل سائل: هل حفظت سورة يوسف؟ فتجيب بالجمليتين التاليتين: - "حفظت سورة يوسف" أو "سورة يوسف حفظت". فمعنى الجمليتين ليس سواء؛ نظراً لاختلاف المعنيين في النفس، فالألفاظ واحدة، لكن اختلف النظم "أعني ترتيب الكلمات" فالجواب بـ "سورة يوسف حفظت" تقديم للمفعول على الفعل، ليفيد القصر والاختصاص؛ ومعنى هذا أنني لم أحفظ إلا هذه السورة. أما الجواب بـ "حفظت سورة يوسف" فإن هذا هو الذي يتسق مع السؤال، ولا يدل على أنني لم أحفظ غير هذه السورة.

وهكذا فالاختلاف في المعنى المراد التعبير عنه، لا بد أن يؤدي إلى الاختلاف في النظم. فالنظم عملية فكرية لا بد له من عمليتين أولاً: "ترتيب المعاني في النفس". ثانياً: ترتيب الألفاظ في النطق" (١).

يتبين على ضوء ما تقدم، أن نظرية النظم الجرجانية، تركز علاقة الفكر باللغة، حيث وضحت المعاني النحوية في الأداء الدلالي. ويمكن اعتبار هذا المفهوم للنظم بمثابة تأسيس لمبدأ التكاملية في عناصر الأداء الفني؛ لأن أساس النظم مجموعة العلاقات التي تحقق استخدام الكلمة في سياقها المناسب.

يقول الدكتور تمام حسّان: "النظم - كما فهمه عبد القاهر - هو نظم المعاني النحوية في نفس المتكلم، لا بناء الكلمات في صورة جملة" (٢).

ومما ورد في كتاب عبد القاهر "دلائل الإعجاز" والذي يتصل بالنظم "المعنى ومعنى المعنى" "فالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة. "ومعنى المعنى": أن تعقل من اللفظ معناه، ثم يقضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر. فالمعاني الأولى المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض، والوشى، الحلي، وأشبه ذلك، والمعاني الثانوية التي يوماً إليها بتلك المعاني، هي التي تكسى بتلك المعارض، وتزّين بذلك الوشي والحلي" (٣).

يظهر من كلام عبد القاهر - الأنف الذكر - أنه صاحب نظرية المعاني الثانوية، أو المعاني الإضافية، أو الشكل والمضمون. والتي أضاعت الدرب لكثير من دارسي البلاغة القرآن الكريم (٤).

ويقول الجرجاني في حديثه عن المعاني التي يمكن تلمسها من النظم: - "فالمعاني لا تتجلى للسامع إلا من الألفاظ، وكان لا يوقف على الأمور التي بتوخيها يكون النظم، إلا بأن ينظر إلى

(١) عباس، فضل بالاشتراك: إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان-عمان، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ص ٧١.

(٢) حسّان، تمام: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٧٩، ص ١٨٧.

(٣) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٤) بنظر مثلاً كتاب المعاني الثابتة في الأسلوب القرآن، فحى أحمد عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط ٢، ١٩٧٦.



الألفاظ مرتبة على الأنحاء التي يوجبها ترتيب المعاني في النفس" (١)، "وأمر النظم في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنت ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك" (٢).

وترد كلمة الأسلوب عند عبد القاهر فيقول: - "الأسلوب الضرب من النظم، والطريقة فيه. ويسميه الاحتذاء" (٣).

ويؤكد الجرجاني أن ممكن الإعجاز القرآني في نظمه، يقول: "ثبت من النظم أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن، إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه، وفروقه، وموضعه ومكانه، وأنه لا مستبطن له سواها وأن لا وجه لطلبه فيما عداها" (٤).

واستمد البلقاء مفهوم عبد القاهر للنظم، إذ عرفه الشريف الجرجاني بقوله: - "تأليف الكلمات والجمل مرتبة المعاني، متناسبة الدلالات؛ على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: - الألفاظ المترتبة المسوقة المعبرة دلالتها على ما يقتضيه العقل" (٥).

"لقد أصبحت نظرية النظم علماً يبرز الأسرار والنكت في أسلوب القرآن، ويكشف الفروق المعنوية الدقيقة بين خصوصيات التراكيب، ويربط هذه الخصوصيات بالسياق والغرض العام، الذي ورد النص الكريم بشأنه" (٦).

يتضح من التعريف السابق للنظم أن موضوعه يبحث علاقة الجملة بالجملة، وبيان وجه ارتباطهما، والأسرار المعنوية وراء هذه الارتباطات.

(١) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ٣٦٠.

(٢) المصدر السابق: ٤٥٤.

(٣) المصدر السابق: ٤٦٨-٤٦٩.

(٤) المصدر السابق: ٥٢٦.

(٥) الجرجاني، الشريف محمد بن علي: التعريفات، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ص ٢٤٢.

(٦) أبو موسى، محمد: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، دار الضامن - القاهرة، ط ١٤٠٨ - ١٩٨٩ م، ص ٢٣٧.

## المبحث الثاني -

### النظم في الموروث النحوي والنقدي

أسهم علماء العرب والمسلمين في تأسيس نظرية النظم منذ وقت مبكر، وسبب ذلك؛ أن الدراسات اللغوية - بشكل عام- وجدت لخدمة القرآن الكريم، والذب عنه، بعد فساد اللسان العربي، وظهور اللحن، وللدرد على الطاعنين في نظم القرآن.

وعلى الرغم من اقتران النظم بعبد القاهر الجرجاني، إلا أن جذوره ممتدة في التراث العربي، لكن ليس بالمفهوم الواسع الذي أوجده عبد القاهر.

وعند الحديث عن نظرية النظم قبل عبد القاهر، لا بد أن نذكر جهود النحاة العرب في تلمس هذه النظرية؛ وذلك لأن " فكرة النظم نحوية محضة استفاد منها البلاغيون وطورها وصورها أحسن تصوير " (١).

ويعد سيبويه (ت، ١٨٠هـ) من أقدم الذين وقفوا، بعمق، عند جوانب الكلام وتحليله، وما يحدث فيه من تقديم وتأخير، أو حذف وذكر، أو وصل وفصل.

وقد استخدم لفظ (البناء) الذي يدل على معنى النظم؛ فالجملة عندما تنتظم كلماتها تكون بناءً متراصاً. وأبان عن هذا البناء في باب " المسند والمسند إليه " بقوله:- " وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدأً، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنى عليه، وهو قولك:- عبد الله أخوك، وهذا أخوك، ومثل ذلك:- يذهب عبد الله، فلا بد للفعل من الاسم، كما لم يكن للاسم الأول بدء من الآخر في الابتداء " (٢).

فظاهرة البناء عند سيبويه تعد خطوة في طريق نظرية النظم، التي تدرجت في مستواها حتى بلغت غايتها الفنية عند الجرجاني.

كما وردت عند الأدباء إشارات إلى النظم، كابن المقفع (ت ٤٣هـ) فقد أشار إلى صياغة الكلام، يقول:- " فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل، وأن يقولوا قولاً بديعاً، وليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم، وإن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص، وجد ياقوتاً، وزبرجداً، فنظمه قلاند وسموطا وأكاليل، ووضع كل فص موضعاً، وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيد به بذلك حسناً، فسمي بذلك صائغاً رقيقاً، وكصاغة الذهب والفضة صنعوا فيها ما يعجب الناس من الحلي والآنية " (٣).

(١) مطلوب، أحد: أساليب بلاغية، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، ط ١، ص ٦٨.

(٢) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، نج. عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ٢٣/١.

(٣) ابن المقفع، عبد الله: الأدب الصغير، نج. أحمد زكي باشا، جمعية العروة الوثقى الخيرية، ط ١، ١٩١١م، ص ٧.

وتلتقي نظرة ابن المقفع، مع المدلول اللغوي لكلمة "نظم".

وبرزت بعض الأساليب البلاغية في مجاز القرآن، لأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) إذ أصبحت مباحث أساسية في علم المعاني المنبثق من نظرية النظم، كالتقديم والتأخير، وقد ذكره في مقدمة كتابه فقال: - "ومن مجاز المقدم والمؤخر: - (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) [فصلت: ٣٩] أراد: ربت واهتزت" (١).

وللجاحظ (ت ٢٥٥هـ) حديث عن النظم، حتى أنه سمي أحد كتبه "نظم القرآن" الذي قال فيه: - "كما عنيت في كتابي في الاحتجاج بنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه" (٢)، وقال في موضع آخر: - "وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به" (٣). فالجاحظ في هذين النصين وغيرهما، يؤمن بأن القرآن الكريم معجز بنظمه، وما فيه من بلاغة أسلوب تأسر القلوب.

ويعتبر الجاحظ أول من قال بنظم القرآن، غير أنه لم يتوسع في شرح فكرته وتفصيلها، لكن له الفضل في وضع اللبنة الأولى، لنظرية النظم، التي أكملها عبد القاهر الجرجاني.

وخلاصة رأي الجاحظ في مسألة الإعجاز القرآني: - "أن الإعجاز متصل بالنظم وحده بصرف النظر عما - يحويه القرآن من المعاني، إذ طلب الله تعالى إليهم أن يأتوا بعشر سور من مثله في النظم والروعة في التأليف، حتى ولو حوى التأليف الرائع كل باطل ومفتري لا معنى له" (٤).

واستعمل الجاحظ لفظة "النظم" للدلالة على أكثر من معنى، فهو قد تحدث مراراً عن النظم "بمعنى التأليف والإنشاء، وجعل له أصنافاً من القصيد والرجز المزدوج، والأسجاع والمنثور" (٥).

ومهما يكن من أمر فإن ضياع كتاب "نظم القرآن" للجاحظ، أدى إلى عدم معرفة تفاصيل نظريته القائلة: بأن إعجاز القرآن هو في نظمه وتأليفه، فلو كان الكتاب موجوداً لأمكن الكشف عن رأيه بوضوح في هذه المسألة.

ولابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) اهتمامات بالعلاقات النحوية بين ألفاظ العبارة، وفكرة النظم عنده بلاغية. وقد تناول في كتابه "مشكل القرآن" "قضايا من علم المعاني بمفهومه الدال على النظم،

(١) أبو عبيدة، معمر بن المثنى: مجاز القرآن، نج. محمد فواد، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٩٥٤، ١٢/١.

(٢) الجاحظ، أبو عثمان: الحيران، نج. عبد السلام هارون - مكتبة البابي الحلبي وأولاده - ١٩٣٨م، ٩/١.

(٣) المصدر السابق ٩٠/٤.

(٤) شيخ أمين، بكري: التعبير الفني في القرآن، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - ط ١، ١٩٩٤، ص ١٥٤.

(٥) عتيق، عبد العزيز: في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية - بيروت، ص ٨٣.

غير أنه أدرجها تحت اسم "المجاز"؛ حيث يدخل جميع ألوان البيان، ويدخل في نطاقه بعض عناصر المعاني؛ كالتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار<sup>(١)</sup>.

وجاء في خطبة كتابه: " الحمد لله الذي نهج لنا سبل الرشاد، وهدانا بنور الكتاب.... وقطع بعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين...." (٢) فسماه تأليفاً ونظماً. وأبان المبرد النحوي (ت ٢٨٥هـ) عن أثر التلاصق "المسند والمسند إليه" في إقامة المعنى، " وهما ما لا يستغنى واحد منهما عن صاحبه، فالابتداء نحو قولك: - "زيد"، فإذا ذكرته فإنما تذكره للسامع ليتوقع ما تخبره به عنه، فإذا قلت: - "منطلق" أو ما أشبهه صح فمعنى الكلام؛ لأن اللفظة الواحدة من الاسم والفعل، لا تفيد شيئاً، وإذا قرنتها بما يصلح حدث معنى واستغنى الكلام"<sup>(٣)</sup>. ويظهر أن نظرة المبرد للتركيب تشبه نظرة سيبويه، لأن كلتا النظريتين تركز على ظاهرة الإسناد المبنية على التلازم بين أركان الجملة.

كما وسمه ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) "بالتأليف"<sup>(٤)</sup> والتأليف معنى من معاني النظم كما تقدم في المعنى اللغوي.

ولأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت ٣٠٦هـ) كتاب في إعجاز القرآن، سماه " إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه " ولا يعرف عنه شيء، مع أن عبد القاهر الجرجاني شرحه مرتين، لأن الأصل وشرحيه قد ضاعا، وإن كان العنوان يدل على أنه عالِم مسألة النظم وأقام عليها إعجاز كتاب الله<sup>(٥)</sup>.

وتتجلى بعض ملامح فكرة النظم عند أبي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ) من خلال المناظرة التي قامت بينه وبين ممتي بن يونس، في مجلس الوزير أبي الفتح بن جعفر بن الفرات، حيث يقول: - " معاني النحو منقسمة بين حركات النحو وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقنضية لها، وبين تأليف الكلام، بالتقديم والتأخير، وتوخي الصواب في ذلك، وتجنب الخطأ"<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: تأويل مشكل القرآن، تح. السيد أحمد صقر، دار التراث، ط ٢، ١٩٧٣م، ص ٩٩-١٠٠، وينظر أيضاً، ص ٢٩٩-٣١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٣.

(٣) المبرد، محمد بن يزيد: المقنضب، تح. محمد عبد الحائق عضية، عالم الكتب - بيروت - د.ت، ١٢٦/٤.

(٤) الطبري، ابن جرير: جامع البيان في تفسير أي القرآن، دار الفكر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ١/١٦٦.

(٥) مطلوب، أحمد، أساليب بلاغية، ص ٦٩.

(٦) التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، تح. أحمد أمين وأحمد الزين، مكتبة الحياة - بيروت، ١/١٢١.

وبذلك تجاوزت المعاني النحوية عند السيرافي، الحركة الإعرابية، وتمييز الصواب من الخطأ، إلى أسرار بلاغية؛ كالترديد والتأخير، وكانت فكرة المعاني النحوية من الأركان الأساسية في بناء نظرية النظم عند الجرجاني، مما يدل على أن بذور هذه النظرية موجودة في هذه المناظرة. ويُلمح عند الأمدى (٣٧٠هـ) الذوق في إدراك الجمال عند خروج النظم عن المؤلف، ويتحقق هذا الاختراق للمؤلف بالانحراف نحو الغرابة المبدعة، بحسن التأليف والمهارة في أداء اللفظ، يقول: "وحسن التأليف، وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاءً وحُسناً ورونقاً حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن، وزيادة لم تعهد"<sup>(١)</sup>.

ويستخدم الرماني (ت. ٣٨٦هـ) مفهوم "تعديل النظم" الذي يقترّب من طبيعة النظم لأنه، يحمل بُعداً أسلوبياً يقف في أعلى مراتب البيان، ويمكن وصف هذا المفهوم بأنه تناول أسلوب يرمي إلى أسرار بلاغية تظهر فنية في التعبير وفق مقاييس البلاغة التي تضع الكلام في مراتبه، تحقيقاً لمبدأ التوازن بين العناصر المكونة للعمل الفني يقول: "وحسن البيان في الكلام على مراتب، فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحُسن في العبارة من تعديل النظم، حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله تقبل البرد، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة"<sup>(٢)</sup>.

وتكلم أبو سليمان محمد الخطابي (ت. ٣٨٨هـ) في النظم، وذكر أنه يقوم بثلاثة أشياء: - "لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن "وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلواماً، وتشاكلاً من نظمه"<sup>(٣)</sup>.

فعبارة: "رباط لها ناظم" صورة من صور النظم الذي يقوم على تعليق الكلام بطريقة منتظمة على وجه مخصوص، وإدراك لجوهر فكرة النظم التي أحس بها الخطابي، وتبين التكامل بين اللفظ والمعنى، وهذه الإشارة تنظر للكلمة بناءً على تأليف ينتظم أجزاء التركيب، في علاقات متوافقة، قادرة على تحقيق التماسك وفقاً للرباط الناظم.

ويرى أن "رسوم النظم" تقوم بوظيفة حيوية؛ إذ يتكون للكلام من خلالها صورة في النفس تسهم في تحقيق البيان، وتتفاعل "رسوم النظم" مع المعاني العميقة القائمة في النفس لتخرج على هيئة تراكيب مناسبة لمقتضى الحال، وقوانين البلاغة، وصورة الكلام في النفس مظهر من مظاهر النظم يقول: "وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحنق فيها أكثر؛ لأنها لجام الألفاظ، وزمام

(١) الأمدى - الموازنة بين شعر أي نمام والبحثري. نج: محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة العلمية - بيروت. د.ت ص ٣٨١.

(٢) الرماني، علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، نج: محمد خلف الله. ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، ص ٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣.

المعاني، وبها تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض، فتقوم له صورة في النفس، يتشكل فيها البيان<sup>(١)</sup>. ويقرر أن ممكن الإعجاز القرآني كامناً بنظمه " فالقرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني<sup>(٢)</sup>."

وعقد أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) في كتابه باباً في " البيان عن حسن النظم، وجودة الرصف، والسبك، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها<sup>(٣)</sup>." وبالنظر فيما أورده أبو هلال يتبادر إلى الذهن المعنى اللغوي لكلمة "النظم" فلم تأخذ عنده مفهوماً اصطلاحياً محدداً يمكن إرجاع أمر البلاغة إليه.

ويرى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (ت ٤٠٣هـ) أن كتاب الله معجز بالنظم، لأن نظمته خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، يقول:-  
" فأما شاو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً<sup>(٤)</sup>."

وقد تأثر الباقلائي في نظريته في إعجاز القرآن " بفكرة الجاحظ التي ذهب فيها إلى أن مرجع الإعجاز في القرآن إلى نظمته وأسلوبه العجيب، كما تأثر -أيضاً- بفكرة الرماني الذي ذهب فيها إلى أن القرآن يرتفع إلى أعلى طبقة من طبقات البلاغة<sup>(٥)</sup>."

واعتبر القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) الفصاحة في التركيب لا باللفظ، يقول:- " اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم، على طريق مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة المواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي يدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام رابع<sup>(٦)</sup>."

وقد وضح عبد الجبار مفهوم النظم، وأنه عبارة عن ضم الكلمات على نحو معين، وأن الأساس في ذلك هو المواضعة، واتفاق أعضاء الجماعة اللغوية. على أن التركيب المعين يؤدي إلى معنى معين بواسطة ما يسمى بالقرائن اللفظية التي تعمل على توضيح المعنى، وهذه القرائن: الضم

(١) المصدر السابق، ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) العسكري، أبو هلال، الصناعيتين: تح. الجاوي، وأي الفضل، دار الفكر العربي، ط ١، ص ١٦٧.

(٤) الباقلائي، أبو بكر: إعجاز القرآن، نج. أحمد صقر، ص ٦٩.

(٥) ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ١٩٥٦م، ص ١٠٨-١٠٩.

(٦) الأسد أيسادي، عبد الجبار: المعنى في أبواب التوحيد والعدل، تح. أمين الخولي، مطبعة دار الكتاب المصرية القاهرة، ط ١، ١٣٨٠هـ -

١٩٦٠م، ١٦/١٩٩.

على طريق مخصوصة، ويسميه الدكتور تمام حسان : "التضام" وهو عنده على وجهين، الإعراب والموقع<sup>(١)</sup>.

ويعتبر الدكتور شوقي ضيف " أفكار عبد الجبار في تفسير النظم، خير ملهم لعبد القاهر للخروج بنظرية وافية في النظم"<sup>(٢)</sup>.

يتبين من العرض التاريخي المقتضب للنظم قبل عبد القاهر، أنه قد تطور في مراحل، ولكن معناه ظلّ ضبابياً، وإن كانت عناصر النظم التي أوردها عبد القاهر موجودة في تراث السابقين، ولا عجب في ذلك؛ لأن الدافع الديني، وإثبات الإعجاز القرآني، من أهم الميزات التي أبرزت النظم باعتباره من أقوى أدلة الإعجاز.

ومما يميز به عبد القاهر "عن سابقه هو تحديد موضوعات علم النظم تحديداً كاملاً، والكشف عن حقيقة مصطلحاته، وجعله علماً قائماً بذاته، بعد أن كان فرقاً وشذرات متناثرة في مصادر شتى، في بيانات علمية مختلفة، فاستحق بذلك أن يكون مبتكراً حقيقياً لنظرية النظم، كأصل لعلم المعاني. والابتكار هنا ليس معناه إيجاد هذه النظرية من عدم، بل إن الجرجاني قد أفرغ في كتابه "دلائل الإعجاز" نظرية النظم، مستخدماً في تأصيلها بما أعطي من قوة في استقصاء جهود السابقين فيها، ليثبت أن الشأن في الكلام للنظم، وهو في هذا الكتاب لم يكتفِ بالتقرير النظري، ولكنه جاء بكثير من الدراسات التطبيقية، التي ضرب لها كثيراً من الأمثلة. وذكر التعريف والتكبير، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والوصل والفصل.

فالفضل مشترك بين السابقين وعبد القاهر فهم " وضعوا عناصر النظم في كتبهم، فقام عبد القاهر فوضع القواعد العامة لهذا النظم"<sup>(٣)</sup>.

إذن عصر عبد القاهر الجرجاني (القرن الخامس الهجري) "يعد مرحلة النصح والرشد الفكري في تلك الحياة اللغوية"<sup>(٤)</sup>.

وقد اتخذت الفكرة بعد عبد القاهر منحى جديداً تمثل في التويب والترتيب، ويعد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) من خيرة من طبق نظرية عبد القاهر تطبيقاً دقيقاً على نصوص القرآن الكريم في تفسيره "الكشاف" لإثبات أن إعجاز القرآن بنظمه، يقول:- "النظم هو أم الإعجاز، والقانون الذي يوقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر".

(١) حسان، تمام: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢٠٥ وما بعدها.

(٢) ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، ص ١٦٦.

(٣) العمري، أحمد: المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ٢٣٤.

(٤) طبانة، بدوي: البيان العربي، دار المنارة - حدة، دار الرفاعي - الرياض، ط ٧، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ١٩٣.

ومفهوم النظم كما يتصوره الزمخشري يعني " بيان الروابط والعلاقات بين الجمل، وكيف يدعو الكلام بعضه بعضاً، وكيف يأخذ بعضه بحجرة بعض"<sup>(١)</sup>.

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الزمخشري هو الذي ميز بين علوم البلاغة، مستنداً في ذلك إلى ما ورد في الكشاف "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن هما علم المعاني، وعلم البيان"<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة أن السكاكي (ت ٦٢٦هـ) هو أول من فصل موضوعات كل من علم المعاني والبيان على حدة، وجعل كثيراً من أنواع البديع تابعة لعلم المعاني.

وقد عرف السكاكي علم المعاني بقوله: - "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي ليطابق مقتضى الحال، أو هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عند الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال وذكره"<sup>(٣)</sup>.

وألف السكاكي كتاباً سماه "مفتاح العلوم" الذي يعد دستور التأليف البلاغي إلى الآن، فقد قسم البلاغة العربية إلى العلوم الثلاثة، المعاني والبيان والبديع بعد مقدمة تتناول الفصاحة والبلاغة.

والحقيقة أن "عصر السكاكي كان عصر جمود وتوقف بالنسبة لقضية الإعجاز القرآني من حيث الكشف عن مضامين جديدة"<sup>(٤)</sup>. وظل تصور السكاكي "هو الاطار العام الذي تدرس من خلاله البلاغة العربية حتى يومنا هذا"<sup>(٥)</sup>.

وقام القزويني (ت ٧٣٩) بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكي سماه "التلخيص" وألف كتاباً سماه الايضاح في علوم البلاغة.

وتوالت الشروحات والتلخيصات لكتاب السكاكي. وقد ألف يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩) كتاب "الطراز" المتضمن لأسرار البلاغة وعيون حقائق الإعجاز.

وتحدث ابن القيم (ت ٧٥١هـ) عن عدة موضوعات تتعلق بالنظم<sup>(٦)</sup> وكانت نظرية النظم ميداناً رحباً لكثير من المفسرين الذين طبقوها - أي نظرية النظم - في تفاسيرهم نذكر منهم على سبيل المثال الزمخشري والفخر الرازي ت (٦٠٦هـ) في تفسيره "مفاتيح الغيب" أو "التفسير الكبير" وتفسير البحر المحيط لأبي حيان (ت ٧٤٥هـ). والباقعي (ت ٨٨٥هـ) الذي سمي تفسيره "نظم

<sup>(١)</sup> أبو موسى، محمد: البلاغة القرآنية ص ٢٣٦.

<sup>(٢)</sup> الزمخشري، جار الله: الكشاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط "١"، ١٤١٧ - ١٩٩٧م، ٤٣/١.

<sup>(٣)</sup> السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط ١، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م، ص ٧٠.

<sup>(٤)</sup> العمري، أحمد جمال: المباحث البلاغية ص ٣٥١.

<sup>(٥)</sup> المرجع السابق، ص ٣٥١، وينظر: طنبانة، بدوي: البيان العربي، ص ٣٣٦.

<sup>(٦)</sup> ينظر ابن القيم، شمس الدين: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار الكتب العلمية، ص ٨٢ - ١٨٥، ٨٦ - ١٨٨.



الدرر". وتفسير أبي السعود (ت ٩٨٢هـ). وقد ألف جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) كتاب "معتك الأقران في إعجاز القرآن" "أرجع فيه إعجاز القرآن إلى حسن تأليفه ونظمه"<sup>(١)</sup>.

---

<sup>(١)</sup> السيوطي، جلال الدين: معتك الأقران في إعجاز القرآن، تصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٣/١.

## المبحث الثالث -

### آراء الباحثين المعاصرين في نظرية النظم عند عبد القاهر

اتجهت دراسة البلاغة العربية في العصر الحديث - اتجاهات متعددة، بهدف الخروج من الجمود الذي أصاب علوم البلاغة، بعد تقييدها بالقواعد الجامدة.

والحق أن الدراسات البلاغية والنقدية، خطت خطوات ذات بال - في هذا المجال ونتج عنها نتائج إيجابية، أزلت كثيراً من المعوقات التي كانت تعترض تطور البلاغة العربية؛ ومن هذه الدراسات، الدراسات الدلالية والأسلوبية والبنائية.

والنظم كان محور هذه الدراسات؛ لأنه اشتمل على كثير من مضامينها مما عدُّ بسببه عبد القاهر قفزة متقدمة لعصره؛ لأنه يغوص في أعماق النص، ويحلل كلماته وفق سياقها الذي ترد فيه، رابطاً بينها برباط وثيق.

ونتج عن ذلك :- أن عكف كثير من النقاد والبلاغيين في العصر الحديث، على دراسة هذه النظرية، وإحيائها لما تتميز به من ثراء معرفي، وشمول في عرض العناصر النظامية.

والذي شجّع النقاد والبلاغيين العرب على دراسة النظم من جديد - إضافة إلى ما سبق ذكره آنفاً - هو التطور الهائل في المناهج النقدية عند الغربيين، كالدراسات الأسلوبية والبنائية والدلالية ... فأراد نقاد العرب إثبات أن تراثهم العربي اشتمل على هذه المناهج، ومن هذا التراث نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني.

ويجدر بنا ألا ننسى أثر الدراسات القرآنية الحديثة في بعث نظرية النظم من جديد. وتناول كثير من الباحثين المعاصرين نظرية النظم، وسأتحدث عن بعض هذه الجهود على سبيل الاقتضاب والاختصار.

ووقف المفسرون من نظرية النظم موقف المستفيد منهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره "الستحرير والتتوير" الذي طبق النظرية وأضاف عليها في أعماله البيانية، وهو من أفضل كتب التفسير التي وظفت نظرية النظم في النص القرآني وطورتها كثيراً.

قال ابن عاشور عن النظم " إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة؛ فجمال القرآن لها دلالتها البلاغية، التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء، ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها، ولها دلالتها المطوية، وهي دلالة ما يذكر على ما يقدر اعتماداً على القرينة، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء، وكثرت في القرآن مثل تقدير القول، وتقدير الموصوف، وتقدير الصفة. ولها دلالة مواقع جملته، بحسب ما قبلها وما بعدها؛ ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها أو في موقع الاستدراك، أو في موقع جواب سؤال، أو في موقع تعريض، أو نحوه. وهذه الدلالة لا

تأتى في كلام العرب؛ لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة، وبذلك الإطالة تأتي تعدد مواقع الجمل والأغراض<sup>(١)</sup>.

وكانما أراد ابن عاشور أن يضيف من خلال كلامه المتقدم إلى مفهوم النظم، مفهوم الدلالة التي ينتهي إليها نظم الجمل، ويفضي بها من خلال سياقها إلى الأغراض والمقاصد، وهذه وإن كانت تفهم من كلام عبد القاهر عن النظم، غير أن ابن عاشور أكدها، وألح عليها، فالناظر في تفسيره ينتقل من فائدة بلاغية إلى أخرى.

وتمثل النظم عند الأستاذ (مصطفى صادق الرافعي): " في الحروف وأصواتها، والكلمات وحروفها، والجمل وكلماتها. وهذا الترتيب منطقي؛ لأن الحروف أصل الكلمات، والكلمات هي التي تتكون منها الجمل"<sup>(٢)</sup>.

ويخلص الرافعي إلى القول:- " إن للتركيب روحاً تجمععه ومن تفاوت، وأن للفظ فيه معنى، ثم ترى لهذا المعنى في التركيب معنى آخر، هو الذي يفضي على النفس، ويتصل بها، فكانه كلام مدخل، وكان اللغة منه لغتان"<sup>(٣)</sup>.

إن، الرافعي يرى أن الإعجاز كامن في النظم القرآني الذي يتفاعل فيه حروفه مع كلماته ومع جملة، ويتأثر بما قاله عبد القاهر في كتابه الدلائل من " المعنى ومعنى المعنى".

أما (سيد قطب) فقد اعتبر نظرية النظم عند عبد القاهر، خطوة في غاية التوفيق لباحث في عصره، فلقد أوشك أن يصل إلى شيء كبير في كتابه "دلائل الإعجاز" لولا قصة (المعاني والألفاظ) التي ظلت تخايل له، من أول الكتاب إلى آخره، فصرفته عن كثير مما كان وشيكاً أن يصل إليه، ولكنه على الرغم من ذلك كله، كان أنفذ حساً من كل من كتبوا في هذا الباب على وجه العموم، حتى في العصر الحديث<sup>(٤)</sup>.

ويتابع سيد قطب كلامه معلقاً على ما ذكره عبد القاهر حول قوله تعالى:- (واشتعل الرأسُ شنباً) [مريم: ٤] وقوله تعالى (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا) [القمر: ١٢] " من أن الجمال هو الذي قاله من ناحية النظم، وفي شيء آخر وراءه، هو هذه الحركة التخيلية السريعة التي يصورها التعبير:- حركة الاشتعال التي تتناول الرأس في لحظة، وحركة التفجير التي تغور فيها الأرض في ومضة"<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن عاشور، الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ١/١١٠.

(٢) الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط٧، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، ص٢٣٨.

(٣) السابق، ص٢٨١.

(٤) قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق - بيروت، ص٢٧.

(٥) المرجع السابق ص٢٩.

يفهم من كلام سيد قطب أن النظم وما يشكل منه من صور هو ممكن الإعجاز، فهو يرى أن "التصوير الفني هو الذي يبرز الخصائص العامة التي يتميز بها القرآن الكريم في تعبيره عن جميع الأغراض"<sup>(١)</sup>.

ويفسر التصوير بقوله: "هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسنة، المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة، أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوجه أو مشهد، وإذا النموذج الانساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية"<sup>(٢)</sup>.

وخلاصة رأي السيد قطب " أن القرآن معجز ببلاغته ونظمه، وأسلوبه، كما هو معجز بمضمونه وهدفه، وكونه منهجاً كاملاً للحياة"<sup>(٣)</sup>.

إن النظرية التصويرية لسيد قطب، وهي عمدته في مبدأ الإعجاز على جلاله قدرها وعلو مقامها، جعلت دراسته للنص القرآني، لا تنتقد بمبدأ مستويات التحليل الأسلوبي وهو مبدأ جوهري في الدراسة الأسلوبية الحديثة.

ويشيد الدكتور صبحي الصالح بعبد القاهر الجرجاني، بقوله:- "ولقد كان الإعجاز القرآني خليقاً أن يثير في الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية يتصدى بها العلماء للكشف عن وجوه البلاغة القرآنية، وعن أسلوب القرآن الفذ في التصوير والتعبير. وبذل أولئك العلماء جهوداً مشكورة، وقاموا بمحاولات مضمّنية لإبراز البلاغة القرآنية في صورة موحية ذات ظلال، ولكنهم وقفوا غالباً عند النص الواحد ..... إلى أن وصل الأمر لعبد القاهر، فكان ذواقاً للأسلوب القرآني، حتى أوْشك أن يسبق عصره، في بعض لمحاته الموفقة التي نفذ بها إلى إدراك الجمال الفني في كتاب الله. واستمع إليه وهو يفسر هذه الصورة البارعة في قوله تعالى (وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْئاً) [مريم: ٤] فسيجيبك منه بلا ريب حسه المرهف الدقيق، وفهمه طريقة القرآن المفصلة في التعبير والتصوير"<sup>(٤)</sup>.

يتبين من النص الذي أورده الدكتور صبحي الصالح - أنفاً - أنه يشير إلى قضية التصوير الفني في القرآن، وأهميتها لمعرفة إدراك الإعجاز، وهو بذلك يلتقي مع رأي سيد قطب مع اختلاف

(١) قطب، سيد: التصوير الفني، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢.

(٣) الحمصي، نعيم: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ط "٢" ص ٣٦٤.

(٤) الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط "٢٠"، ١٩٩٧م، ص ٣١٤.

طفيف يتعلق بعبد القاهر، فسيد قطب يرى أن عبد القاهر الجرجاني لم يشر إلى التصوير الذي ينبثق عن التركيب في حين أن صبحي الصالح يشير إلى ذلك عند عبد القاهر.

وللدكتور إبراهيم أنيس رأي في عبد القاهر ونظريته، يتلخص في "أن عبد القاهر قد وضع نظام الجملة العربية في كتابه المستقل "دلائل الإعجاز، والذي اشتمل على نظرية نظم الكلام، والتي يهدف بعلاجه له إلى أمور أوسع، حين عالج ترتيب الكلمات في الجمل، متلمساً في النظم نواحي من الجمال، وأموراً لطيفة دقيقة" (١).

ويأخذ الدكتور أنيس على عبد القاهر "ميله إلى الجدل المنطقي، محاولاً التقريب بين أساليب الكلام، والمنطق العقلي العام، ولذلك أكثر من التمثيل بعبارات من صنعه" (٢).

ويرى الأستاذ محمود محمد شاكر أن مكن إعجاز القرآن "كائن في وصف القرآن، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم، وبيان في لغة العرب، ثم في سائر لغات البشر، ثم بيان الثقلين جميعاً، إنسهم وجنهم متظاهرين" (٣).

ومن أهم الآراء المناصرة لنظرية النظم، رأي محمد مندور، إذ يرى بأن "مذهب عبد القاهر هو أصح ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه، هو مذهب العالم السويسري الثبت (فرد ناندي سوسير) وهذه النظرية اللغوية تتماشى مع ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، حيث قرر عبد القاهر في آخر كتاب دلائل الإعجاز، ما يقرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات، وعلى هذا الأساس بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوي الفني" (٤).

ويرى الدكتور أحمد أحمد بدوي، أن عبد القاهر، "بحث أسرار الجمال في نظم الجملة العربية الناتج عن أسرار التركيب، لأن النظم في العبارة الأدبية يحمل أكثر مما تؤديه الجملة، بجريها على النحو، فإن هناك قوى يبثها المؤلف فيها، عن غير عمد حيناً، وعن عمد حيناً آخر. فنجدته يقدّم ويؤخر، ويذكر ويحذف، ويصل ويفصل" (٥). ويقول أيضاً: "يصلح لنا القول: إن عبد القاهر مبتكر نظرية النظم التي يتوصل بها إلى معرفة إعجاز القرآن لم يزيدوا على أن تحدثوا عن

(١) أنيس، إبراهيم: من أسرار اللغة، مكتبة الانجلو المصرية، ط "٢"، ص ٢٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٢-٢٨٣.

(٣) ابن نوي، مالك: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر - لبنان، الطبعة الفرنسية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، ص ٣٠ وما بعدها.

(٤) مندور، محمد: في الميزان الجديد، مكتبة لهضة مصر - الفحالة - القاهرة، ط (٢)، ص ١٤٧.

(٥) بدوي، أحمد: من بلاغة القرآن، مكتبة لهضة مصر - الفحالة، ط (٣)، ص ٩، ١٨.

هذا النظم بعبارة تدل على احساسهم ببلاغته، غير أنهم لا يستطيعون الإبانة عنها، فاستحق بذلك أن يقدر جهده «(١)».

ويشير الدكتور تمام حسان إلى أن عبد القاهر تحدث عن العلاقات بين المعاني النحوية " بواسطة ما يسمى بالقرائن اللفظية، وأن كتابه "الدلائل" محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تاريخ التراث العربي، وهو صاحب اصطلاحات، التعليق، والبناء، والترتيب وكلها تدور حول مفهوم النظم، ومعاني النحو «(٢)».

ويذهب الدكتور محمد زغلول سلام، إلى أن نظرية النظم " جاءت رد فعل على أصحاب نظرية اللفظ التي سادت ميدان البلاغة على مدار القرن الرابع، فالنظرية ترى أن جمال الكلام في نظمه، أي الأسلوب، والجرجاني قد تأثر بالسابقين، كالجاحظ، والرماني، والخطابي وغيرهم «(٣)».

ويوافق الدكتور عبد القادر حسين ما ذهب إليه الدكتور سلام، من أن عبد القاهر " صاحب النظرية البلاغية الكبرى، التي احتوت البلاغة كلها، والنظم عند عبد القاهر الجرجاني هو الأسلوب «(٤)».

ويسند الدكتور شوقي ضيف علم المعاني إلى عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم، " وهي عنده المعاني الإضافية، وهي معاني الجمال البياني، التي تلتبس في ترتيب الكلام حسب مضامينه ودلالته بالنفس، وهي معانٍ ترجع إلى الإسناد، وخصائص مختلفة في المسند إليه والمسند، وفي أضرب الخبر من متعلقات الفعل من مفعولات وأحوال، وفي الفصل والوصل بين الجمل، وفي القصر، وفي الإيجاز، والإطناب «(٥)».

ويرى الدكتور محمد عبد المطلب أن كتاب دلائل الإعجاز " لعبد القاهر " بداية لتحرك صحيح نحو نظرية لغوية في فهم النص الأدبي، ينتهي بها الأمر إلى نوع من التركيز حول دراسة الأسلوب، ذاته من خلال مفهوم النظم. وهو مفهوم اعتمد على التركيب اللغوي الذي يتصل باللفظ المنطوق والكلام النفسي «(٦)».

ويصنف الدكتور بدوي طبانه عبد القاهر من " بين نقاد الأدب، وأن يكون في طليعة النقاد العرب؛ لأن نقده يطوف بأكثر جهات الفن الأدبي، ويتسم نقده بالموضوعية، ويفحص الآثار النفسية

(١) بدوي، أحمد: عبد القاهر وجهوده في البلاغة العربية، مكتبة مصر، ص ٣٥٣.

(٢) حسان، تمام: اللغة العربية معناها ومبناها: ص ١٨٦-١٨٨.

(٣) سلام، محمد زغلول: تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، دار المعارف، مصر، ط ٣، ص ٢١٤-٢١٥.

(٤) حسين، عبد القادر: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار لمؤسسة مصر - الفحالة، ١٩٧٠، ص ٣٦٦-٣٦٨، ٣٧٣.

(٥) ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، ص ١٨٩.

(٦) عبد المطلب، محمد: البلاغة والأسلوبية، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص ١٩٣.

في الأعمال الأدبية، ومواطن الإبداع في الاستعمال اللغوي، وفي نظم الأساليب مع الاستعانة بمعارفه اللغوية والنحوية»<sup>(١)</sup>.

ويقرر الدكتور شفيح السيد أن عبد القاهر، "سابقاً في -عالمه النقدي الرحب- لموكب الدراسات الأسلوبية المعاصرة"<sup>(٢)</sup>.

وألف الدكتور درويش الجندي كتاباً بعنوان: "نظرية عبد القاهر في النظم" تناول النظرية بالشرح والتحليل، ويرى أن عبد القاهر قد "استهدف من نظريته هذه بيان أن جوهر الكلام هو ذلك الكلام النفسي، وأما الكلام اللفظي فهو ظل لهذا الكلام النفسي"<sup>(٣)</sup>.

كما أفرد الأستاذ وليد محمد مراد كتاباً خاصاً بالنظرية سماه "نظرية النظم، وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني"، تحدث فيه عن الإمام عبد القاهر الجرجاني، وأثاره، ونظريته في النظم، وعلاقتها بين اللفظ والمعنى وعن قيمتها العلمية، وأثرها في فكر المحدثين.

غير أن الأستاذ مراد أخذ على عبد القاهر "افتقاره لفنية العرض، وأنه لم يُعطِ رأياً حاسماً في قضيتي الفصاحة والبلاغة، بل اكتفى بربط كل منهما في النظم عامة، مما اضطره في كثير من الأحيان إلى الإعادة، والتكرار باحثاً عن الفصاحة، وثارة أخرى باحثاً عن البلاغة، فإذا هما مسمى واحد"<sup>(٤)</sup>.

وأما بخصوص أسلوبه اللغوي، فقد طغت عليه منطوية العرض، وامتزجت بالروح الفلسفية، ومرجع ذلك لتنوع ثقافته.

ولكن يؤخذ على عبد القاهر أنه لم يَقم بتطبيق نظريته في سورة من سور القرآن الكريم، كي يلمس المرء منها جمال عناصر الجملة القرآنية؛ لتتجلى البلاغة القرآنية بوضوح. ومهما يكن؛ فإن نظرية النظم تعد ثروة فكرية للأجيال الباحثة عن أصالة الجملة في لغتنا العربية.

(١) طبانة، بدوي: البيان العربي، ص ٢٣٣.

(٢) السيد، شفيح، الإنجاز الأسلوب في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص ٢٢.

(٣) الجندي: درويش: نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة لهضة مصر - ١٩٦٠، ص ٤٧.

(٤) بنظر، مراد، وليد: نظرية النظم وقيمتها العلمية، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

## الفصل الثاني

"من أساليب الجملة الخبرية في سورة يوسف

- عليه السلام -"

- التوكيد

- التنكير

- التعريف

- التقدير والتأخير

- الحذف



## من أساليب الجملة الخبرية في سورة يوسف - عليه السلام -

الخبر - هو "قولٌ يحتمل الصدق والكذب لذاته"<sup>(١)</sup> فالكلام له نسبتان؛ نسبة كلامية، يفيدها النطق بالخبر، ونسبة خارجية، وهي ما عليه الواقع، فإن تطابقت النسبتان، كان الخبر صادقاً، وإن اختلفتا كان الخبر كاذباً، وهذا القيد (لذاته)، يُخرج الأخبار التي لا تحتمل إلاّ الصدق، نظراً لقائلها، كأخبار القرآن الكريم، والحديث الشريف، والحقائق الثابتة، نحو: - السماء فوقنا. ويمكن تعريف الخبر بأنه: ما تركيب من جملة أو أكثر، وأفاد فائدة مباشرة، أو ضمنية. فالفائدة المباشرة؛ هي ما يسميه البلغاء "فائدة الخبر". والفائدة الضمنية هي ما يسمونه "لازم الفائدة". وتكون الجملة الخبرية من المسند والمسند إليه؛ وهما ركناها. وما زاد عليهما في الجملة يُسمى "قيداً". والمقصود بالمسند إليه :- "هو الفاعل، والمبتدأ، ونائب الفاعل، وما أصله المبتدأ كاسم كان وأخواتها. والمسند:- هو الفعل التام، وخبر المبتدأ، وما أصله خبر المبتدأ، كخبر كان وأخواتها واسم الفعل، والمصدر النائب عن فعل الأمر. أما القيد:- فهو ما يطلق عليه النحويون اسم "الفضلات" كالمفاعيل، والحال، والتمييز ... . وتعرض الجملة الخبرية من خلال-علاقات السياق - إلى أحوال بلاغية، تسهم في إنشاء نظام لغوي أسلوبي، يعين الدارس في الكشف عن أسرارها، ومقاصده الأسلوبية. وقد برزت ظواهر أسلوبية في سورة يوسف - عليه السلام - تمثلت في التوكيد الخبري، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، وغيرها. وسيقوم الباحث بدراسة هذه الظواهر حسب الطريقة التحليلية التي تستند على نظرية النظم.

(١) يُنظر: القروي، جلال الدين: الايضاح في علوم البلاغة، تح. محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م، ١٥/٣ وما بعدها. والعلوي: يحيى بن حمزة: الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م، ٢٩٣/٣ وما بعدها.

## المبحث الأول: أسلوب التوكيد

يرتبط الكلام بأسلوب التوكيد، لما له من جدوى في تقرير الخبر، وتمكينه في قلب السامع. ولما كانت البلاغة، مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإن التوكيد يراعي الأحوال النفسية للمتلقى. فإن كان المخاطب، خالي الذهن، يلقي إليه الخبر مجرداً من التوكيد<sup>(١)</sup>، وإن كان متردداً فيه حسن تقويته بمؤكد، وإن كان منكراً وجب تأكيده بأكثر من مؤكد.

ويطلق البلاغيون على الخبر الذي يلقي للمخاطب الخالي الذهن اسم "الخبر الابتدائي"، أما الخبر الذي يؤكد بمؤكد واحد يُسمى "طلبياً"، على حين أن الذي يشتمل على أكثر من مؤكد يسمونه "إنكارياً".

وسأقوم بدراسة هذه الأضرب؛ وذلك بأخذ عينة ممثلة لكل نوع من السورة الكريمة. وقبل الحديث عن أضرب الخبر "أنواع التوكيد" في سورة يوسف فلا بد من الإشارة إلى أن الأخبار القرآنية تأتي حسب الأغراض البلاغية المعدة لها.

وقد حقق الخبر، دلالة "فائدة الخبر" على لسان الوارد الذي وجد يوسف في الجب في قوله تعالى: - (قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) [يوسف: ١٩] فالمخاطب لا علم له بالخبر من قبل، وبالتالي جاءت الجملة الخبرية خالية من التوكيد.

كما حقق أيضاً دلالة "لازم الفائدة" على لسان الاخوة في قوله تعالى: - (وَتَخُنْ عَصِيْبَةً) [يوسف: ٨]، فالأبناء يتحدثون عن أنفسهم. قوله تعالى على أسنتهم: - (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) [يوسف: ١٧] فالخبر مستعمل في لازم الفائدة وهو أن المتكلم له علم بمضمون الخبر. وهو تعريض بأنهم صادقون فيما ادعوه؛ لأنهم يعلمون أن أباهم لا يصدقهم فيه، فلم يكونوا ظامعين بتصديقه إياهم.

لكن قد ينزل خالي الذهن منزلة المنكر، لغرض بلاغي، كقوله تعالى: - (ثُمَّ أَذِّنْ مُؤَدِّنَ أَيُّهَا الْعِجْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) [يوسف: ٧٠] فالمخاطب - أصحاب العير - خالي الذهن من الخبر، ولكن الجملة جاءت مؤكدة بأن واللام، لتحقيق الخبر وتأكيده.

ويأتي الخبر الابتدائي لأغراض بلاغية، ومقاصد أسلوبية، يقتضيها المقام منها في سورة يوسف - عليه السلام -.

١- تقرير الحكم: - وقد تحقق هذا الغرض البلاغي في السورة في مواضع عدة، منها قوله تعالى: - (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ) [يوسف: ٢٤] فجملة

(١) أدوات التوكيد هي: إن، وأن، ولام الابتداء، وضمير الفعل، والقسم، وإما الشرطية، وحرفا التبيه؛ (ألا وأما)، والسين، وسوف، ونونا التوكيد، وقد التي هي للتحقيق، والحروف الزائدة؛ (أن، ومن، والباء) .... وغيرها.

(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) تقريراً لنزاهته -عليه السلام- وقد دلت شبه الجملة (عنه) على أن جنس السوء والفحشاء هي التي تلاحق يوسف، لكن رعاية الله لعباده المخلصين، ومنهم يوسف تمنع أي جنس للسوء من الوصول إليه.

ودلت الإضافة (عبادنا) على تعظيم يوسف؛ لأنه من عباد الله المخلصين. وجملة (إنه من عبادنا المخلصين) تعليل لصرف السوء عن يوسف.

وجاء على لسان الإخوة معنى التقرير، في قوله تعالى: - (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) [يوسف: ٧٥] فجملة (فهو جزاؤه) أي: - " أن جزاء السرقة منقرراً باسترقاق السارق، حسب شريعة أبيهم، يعقوب، وهو تقريرٌ للإستتهام (فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ) [يوسف: ٧٤] " (١).

وتجلت دلالة تقرير البراءة بحق يوسف، على لسان امرأة العزيز، بقوله تعالى: - (أَنَا رَاوِدُتُكَ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) [يوسف: ٥١]. فالمرأة تقرر المرادة في جانبها، على حين أنها أكدت براءة يوسف وصدقه، (بِإِنْ وَاللَّامِ).

وفي تقديم الضمير (أنا) العائد عليها (أنا) دلالة تقرير حكم المرادة وتأكيدها.

وتسجم الدلالة البلاغية المتمثلة بالتقرير مع شخصية يوسف -عليه السلام- تجاه ربه -عز وجل- مثلما ورد في قوله تعالى في آخر السورة (أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) [يوسف: ١٠١] فتقرير الولاية لله في الدنيا والآخرة من أهم دلائل الايمان ومتطلباته، وفي هذا تعليم لكل مسلم ومؤمن، من أجل أن يعتصم بحبل الله تعالى في السراء والضراء، في الضيق والفرج، مثلما اعتصم يوسف، بحبل الله المتين، في كل مراحل حياته.

١- السَّعْجَبُ :- وينسجم هذا المقصد الأسلوبي مع موقف النسوة من يوسف -عليه السلام وجماله الأخاذ، إذ دفع هذا الجمال العجيب امرأة العزيز إلى مراودته، كما يتضح في قوله تعالى :- (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) [يوسف: ٣١] \* فقد نَفَيْنَ عنه البشرية، لغزابة جماله، ومُبَاعَدَة حسنه، و لِمَا عَلَيْهِ مِنْ مَحَاسِنِ الصُّورِ، وَأَثْبَتْنَ لَهُ الْمَلَكِيَةَ (٢).

وكما دلّ الخبر المنفي على التعجب من خلق يوسف، فقد دلّ أسلوب القصر في الآية، على التعظيم، وهو مقصد أسلوبي رفيع متفرع من معنى التعجب.

وتعجبت النسوة من عفته -عليه السلام- ونزاهته، وذلك بنفي جنس السوء عن يوسف -عليه السلام- قَلِيلَهُ أَوْ كَثِيرَهُ، كما يظهر في قوله تعالى: (قَلْنِ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) [يوسف: ٥١] .

(١) الزمخشري: الكشاف، ٤٦٢/٢.

(٢) المصدر السابق، ٤٣٩/٢.

ومهما يكن فقد جاءت الأخبار الابتدائية على لسان النسوة مقررة نراهة يوسف، وعفته، كما اشتمل على دلالة التعجب، من خلقه و خلقه.

٣- الدعاء:- وقد ورد في قوله تعالى :- ( وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ) [يوسف:٣٣]. "فقد فزع يوسف إلى ألطاف الله وعصمته -كعادة الأنبياء والصلحاء- فيما عزم عليه، ووطن عليه نفسه من الصبر، وهذا فيه معنى طلب الصرف، والدعاء بلطف"<sup>(١)</sup>. والدليل على أنه للدعاء قوله تعالى في الآية التالية لها: ( فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ) [يوسف:٣٤] فاستجابة الله تحققت بدعاء يوسف، بصرف كيد النسوة، وجملة (إنه هو السميع العليم) جاءت مؤكدة لتنسجم مع أهمية الدعاء إلى الله، فهو مخ العبادة، وهو بذلك يعلمنا أن رحمة الله قريب من المحسنين، الذين يدعون الله فيستجيب لهم.

وجملة جواب الشرط (أصب إليهن) دليل على الميل الذي تقتضيه الطبيعة البشرية للذكري تجاه المرأة، متحقق في شخص يوسف الشاب. وهذا يؤكد أن يوسف-عليه السلام- استحق أن يكون عبدا من عباد الله المخلصين، لأنه صمد أمام شهوته المتوقدة، فاستحق المدح والثناء من الله تعالى. ويلمح في قوله تعالى على لسان يوسف مخاطبا إخوته ( قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ) [يوسف:٩٢] فجملة ( يغفر الله لكم) خبر لمعنى الدعاء " والتعبير بلفظ المضارع يوحي بالبشارة بعاجل غفران الله لما تجدد يومئذ من توبتهم، وندمهم على خطيئتهم"<sup>(٢)</sup> ويظهر أن يوسف -عليه السلام- عدل عن الدعاء (اللهم اغفر لهم) إلى جملة الخبر، إظهارا لرغبته عليه السلام- في تحقق المغفرة ووقوعها، وقد سبقت الجملة الدعائية بالجملة المتضمنة معنى المسامحة، وهي " لا تثريب عليكم اليوم " ، وبعدها دعا الله لهم بالمغفرة.

ويتجلى في قوله تعالى:- ( قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ) [يوسف:١٠٨] دلالة الخبر على الدعاء. فجملة (سبحان الله)، "خبر" فيه معنى الدعاء، وهو مصدر التسبيح، جاء بدلا من الفعل للمبالغة، والتقدير: أسبح الله سبحانه، أي:- " أدع الناس إلى توحيده"<sup>(٣)</sup>. وقد جاءت جملة الدعاء سابقة لجملة النبي (وما أنا من المشركين)؛ لأن من يسبح الله ويوحده، ويدعو إلى دينه على حجة وبرهان لا يمكن أن يكون من جنس المشركين.

وتتضمن جملة "سبحان الله" أيضا دلالة التعظيم المنسجمة مع غرض الدعاء.

(١) الرميشي: الكشاف ٤٤١/٢.

(٢) المصدر السابق: ٤٧٤/٢.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٦٦/١٣.

فَضَّلِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ( يوسف: ٣٨)، فجملة (واتبعت ملة آبائي) خبرٌ ترغيبي، يليق بمقام الدعوة إلى الله، وهو ترغيب صاحبيه في الإيمان والتوحيد، وتنفير لهما عما كانا عليه من الشرك، وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه - عليه السلام -؛ لأن التخيلا مقدمة على التحلية، بقوله تعالى: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) [يوسف: ٣٧].

وتظهر براعة يوسف - عليه السلام - وحسن ترغيبه، إذ أكد تركه لملة الكفر بـ (إن وتكرار هم) والتعبير بالترك، بمعنى الرفض المطلق، " وقد أثر صيغة (تركت) مع التوكيد؛ ليقوي رغبتهما في اتباع ملة الحق وهي دين آبائه " (١).

وجملة (وهم بالآخرة هم كافرون) مؤكدة بضمير الفصل؛ لأن المقصود " تخصيص قوم منهم بالكفر، وهم الكنعانيون؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث مثل كفار العرب " (٢).

وتقابل دلالتا الترغيب والترهيب على لسان يوسف -عزيز مصر-، عندما طلب من إخوته الإيمان ببنيامين. قال تعالى: - (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَدْرُونَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ، فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَلْتَقْرُبُونَ) [يوسف: ٥٩، ٦٠] فجملة (وأنا خير المنزلين) خبر فيه معنى الامتنان والترغيب على تحقيق ما أمرهم به، أما جملة (فإن لم تأتون به فلا كيل لكم عندي) فاشتملت على معنى التهديد والترهيب والتعبير بالجملة الإسمية (وأنا خير المنزلين) للدلالة على أن إكرامه وإحسانه لإخوته كان ثابتاً ودائماً، وأنه كان يخصهم بمزيد من الرعاية والإكرام.

ومن معاني التهديد قوله تعالى: - (وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) [يوسف: ١٩] فالآية " وعيدٌ لإخوته، وتهديد لهم بسبب ما فعلوه بأخيهم، وجعلهم إياه عرضة للبيع والشراء " (٣). وقد جاء التهديد والوعيد لمعاصري النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- الذين صدوا عن سبيل الله في قوله تعالى: - (وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) [يوسف: ١١٠].

ويأتي الخبر محققاً دلالة إنشائية هي "الأمر" في قوله تعالى على لسان يوسف: - (قَالَ تَسْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) [يوسف: ٤٧]، فقد وضع الخبر (تزرعون) موضع الإنشاء؛ لأن المراد طلب الزراعة بدليل قوله تعالى: (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ)، والغرض من ذلك الحث على تحقق الفعل ووقوعه، ورغبة يوسف -عليه

(١) الرغبري: الكشف ٤٤٣/٢.

(٢) الرازي، الفخر: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية - طهران، ط ٢، ١٨/١٣٧، وينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٧٢/١٢.

(٣) الألوسي: روح المعاني، ٣٩٥/١٢.

السلام- في أن يوجد، حتى وكأنه قد وجد وتحقق، وصار خبراً يخبر بوقوعه، ويحكي وجوده على جهة المبالغة في إيجاد الأمور به، والاعتناء بشأنه<sup>(١)</sup>.

ويأتي الخبر لمعنى الاعتذار، عن إخوة يوسف، على لسان يوسف، في قوله تعالى :- (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) [يوسف: ٨٩] فجملة (إذ أنتم جاهلون) اشتملت على "معنى الاعتذار؛ لأن الإخوة لا يعلمون قبح فعلهم تجاه أخيهم يوسف، فلذلك أقدموا عليه"<sup>(٢)</sup>.

• وقد حقق الخبر (الطلبى) في السورة الكريمة أغراضاً بلاغية عدة منها:-

١- التقرير:- وهو غرض متحقق في كثير من آيات السورة. منها قوله تعالى:- (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٩٠] وتتجلى في الخبر المؤكد بـ (إن) براعة التعبير القرآني، فقد ذكر المحسنين بدلاً من الضمير (هم) في كلمة (أجرهم)؛ للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم؛ ليدخل في عمومه هو وأخوه، إذ مقتضى الظاهر أن يقول:- (فإن الله لا يضيع أجرهم)، ولكن عدل إلى الإظهار، لأن "المحسنين لفظٌ يشمل المتقين والصابرين معاً"<sup>(٣)</sup>.

وقد دخلت (إن) على ضمير الشأن المعقّب بالجملة الشرطية، فأحدثت حسناً وجمالاً، غير موجودٍ عند عدمها، يقول عبد القاهر :- "ومن خصائص (إن) أنك ترى في ضمير الشأن معها، من الحسن واللفظ ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث يصلح إلا بها"<sup>(٤)</sup>

فلو أسقطنا (إن) لجاؤنا إلى النظم على النحو التالي:- (هو من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع). وهو من البشاعة في الصياغة ما لا يخفى على أحد، فلما دخلت (إن) على ضمير الشأن أعطته ذلك الرونق الحسن الذي تحدث عنه عبد القاهر، وزيادة على هذا اللطف، فإن ضمير الشأن يستخدم في الأمور العظيمة، والتقوى والصبر أمران عظيمان، بل إن المحسن هو الموصوف بالتقوى والصبر معاً.

(١) الزعزعي: الكشاف ٤٤٩/٢.

(٢) المصدر السابق، ٤٧٢/٢.

(٣) الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، نج. عماد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، دار التراث، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ٤٩٣/٢.

(٤) الجرحاني: دلائل الإعجاز، ٣١٧.

ومثل ذلك قوله تعالى: - (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) [يوسف: ٢٣] وقوله تعالى: - (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [يوسف: ٩٨] وقوله تعالى: - (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [يوسف: ١٠٠].

٢- التبشير بالآخرة :- وقد تحقق هذا المقصد الأسلوبى، للخبر الطلبي، في موضعين: - الأول قوله تعالى: - (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [يوسف: ٥٧]، فالآية تبشير بخيرية أجر الآخرة، للذين آمنوا، وكانوا يتقون، وتتجلى بلاغة التعبير في جانب الايمان بصيغة الماضي، وفي جانب التقوى بصيغة المضارع، لأن "الايمان" عقد القلب الجازم، فهو حاصل دفعة واحدة، وأما التقوى فهي متجددة، بتجدد أسباب الأمر والنهي، واختلاف الأعمال والأزمان<sup>(١)</sup>.

وجاء غرض التبشير، في نهاية السورة، في قوله تعالى: - (وَلَذَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [يوسف: ١٠٩] ففي الآية تبشيرٌ بحسن العاقبة للرسول عليهم السلام، ومن آمن بهم، وهم الذي اتقوا ربهم، وكان هذه الآية نتيجة فعلية لمضمون الآية (٥٧)، الأنفة الذكر وبالتالي جاء الاستفهام في نهايتها للإنكار والتوبيخ، والفعل (تعقلون) منزل منزلة اللزوم، وذلك لوصفهم بعدم التعقل على الاطلاق، فهم لا يعقلون شيئاً ما، وهذا أبلغ في توبيخهم والإنكار عليهم، وإيثار (تعقلون) على (تتفكرون)؛ لأن عدم تعقلهم يدل على عدم تفكيرهم، إذ العقل أداة التفكير والتدبر، كما أن نفي التعقل عنهم يثبت ضده لهم، وهو الجنون، وهذا أبلغ في ذمهم والتشنيع عليهم.

٣- الوعد :- وقد تحقق هذا المعنى في آيتين: الأولى على لسان إخوة يوسف، إذ وعدوا عزيز مصر -يوسف- بالإتيان بأخيهم بنيامين، وإقناع والدهم بالموافقة في قوله تعالى: - (قَالُوا سَنُرَاوِدُكَ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) [يوسف: ٦١] فجملة (سنراود عنه أباه) خبر فيه معنى الوعد، وإيثار حرف التوكيد (السين)، لإشعار العزيز باهتمامهم بالموضوع وتحقيقه، وقد أوصلوا جملة الوعد مع جملة (وإننا لفاعلون) المؤكدة - (إن واللام)؛ لتحقيق الموعد به، وهو إقناع والدهم، مع امتلاكهم لأدوات الإقناع.

أما الآية الثانية؛ فجاءت على لسان يعقوب -عليه السلام- في قوله تعالى: - (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [يوسف: ٩٨] فوعدهم الاستغفار لهم في المستقبل، وجاء بـ (سوف) وهي أبعد في الاستقبال من (السين)؛ وهدفه عليه السلام أن يتعرف منهم صدق التوبة، والتعبير بالمضارع (استغفر) للدلالة على أنه يداوم الاستغفار لهم، في أزمنة المستقبل، إذ أراد أن ينبههم إلى عظيم الذنب، وعظمة الله تعالى، وقد أكد جملة (إنه هو الغفور الرحيم) لتعليم الأبناء أن الدعاء والاستغفار مخ العبادة، وفي الخبر ثناء على الله تعالى، لأنه شديد المغفرة والرحمة، وقُدِّمَت

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ١١/١٣.

(الغفور) على (الرحيم) من باب تقديم التخلية على التحلية. والمؤكدات هي: - (إن، وضمير الفصل، مع صيغتي المبالغة)؛ ليدل على ترغيب الله سبحانه العبد بالتوبة، فإنه إذا علم ذلك طمع في مغفرته ورحمته.

ومن المقاصد الأسلوبية للخبر الطلبي الحث والاستعطاف، من ذلك قوله تعالى: - (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٧٨] فجملة " إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا " خبر مؤكد بـ (إن) لإفادة معنى الحث والاستعطاف؛ لإطلاق سراح بنيامين، " ولم يأت لأصل الفائدة؛ لأنهم قد كانوا أخبروا يوسف-عليه السلام- بخبر أبيهم " (١).

ويكشف الخبر الاستعطافي أن الإخوة قد تغيرت نفوسهم إلى الصلاح، بدليل تسابقهم على فداء أخيهم، إذ دل حرف الفاء الذي يفيد الترتيب والتعقيب دون مهلة على هذا الإيثار، وكانهم يقولون ليوسف -عزيز مصر-؛ خذ أي واحد منا ولا تأخذ بنيامين؛ لأنه وديعة، وأمانة بأعناقنا. وفي ذلك إرضاء لوالدهم. وهذا الخبر يوحى بالتطور الإيجابي في شخصية الإخوة نحو الصلاح والخير والطاعة.

ومن المقاصد الأسلوبية للخبر التعجب، وقد بدا في قوله تعالى: - (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا تَذَكُرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) [يوسف: ٨٥]، فقد أكدوا الخبر بالقسم، الذي فيه معنى التعجب، الذي أفادته (التاء) وهي عوض عن واو القسم، "وهنا المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع؛ لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه، ومن ثم قل استعمال التاء؛ إلا مع لفظ الجلالة، لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم" (٢).

والآية من باب مشاكلة اللفظ للمعنى؛ فإن الله سبحانه وتعالى " أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها؛ فإن (وا الله، وبالله) أكثر استعمالاً، وأعرف من (تالله)، ولما كان الفعل الذي جاور القسم أغرب الصيغ التي في بابه، فإن (كان وأخواتها) أكثر استعمالاً من (تفتنوا)، وأعرف عند العامة؛ ولذلك أتى بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك وهي لفظ (حرضاً)" (٣).

"وجاء القسم في الآية منفيًا؛ لأن علامة الإثبات محذوفة، وهي (اللام ونون التوكيد)، وهما يلزمان جواب القسم المثبت؛ فإذا لم يذكر دَل على أنه منفي؛ لأن المنفي لا يقارنهما، ولو كان المقصود ههنا الإثبات لقل: - لتفتنن، ولزوم (اللام والنون) مذهب البصريين، أما الكوفيون فلقد أجازوا الاقتصار على أحدهما" (٤).

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٣٦/١٣.

(٢) المرجع السابق: ٤٣/١٣-٤٤.

(٣) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٣/٣٧٨.

(٤) الألويسي: روح المعاني، ٤٠/١٣.



وخلاصة القول: أنّ الأبناء، أرادوا أن يحذفوا يوسف، حتى من ذاكرة أبيهم، فاستغربوا استمراره بالفتج على يوسف، فجاءوا بأسلوب خبري تعجبي غريب الألفاظ، لينسجم مع حالتهم النفسية التي تود أن يكون يوسف منسياً من ذاكرة والدهم.

أما الخبر الإنكاري الذي يكون فيه المخاطب منكرًا، فقد تحقق في آيات السورة الكريمة منها قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَدُنَّا مَنَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَخَافِطُونَ، قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ، فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [يوسف: ١١-١٥].

فالأيات السابقة، اشتملت على أخبار إنكارية، اقتضاها المقام والموقف؛ فما جاء على لسان الأبناء (وإنّا له لناصرون - وإنّا له لحافظون)، أكدّ بـ (إنّ و اللام المزحلقة)؛ لأنّ المخاطب -أباهم- منكرٌ لصدق نواياهم تجاه يوسف، وبالتالي جاءوا بأدوات التوكيد ليزيلوا ذلك الإنكار، بقصد تحقيق الخبر، وهو أنهم يحفظون يوسف وينصحونه، كما نزلوه منزلة من لا يأمنهم عليه، من حيث إنه كان لا يأذن له بالخروج معهم للرعي، ونحوه.

وتقديم شبه الجملة (له) للاختصاص، أي أنهم -خصوصاً- ناصرين ليوسف وحافظون له. وجاء رد يعقوب -عليه السلام- عليهم قوياً إذ أكد قاطعاً حزنه بـ (إنّ و اللام)؛ أيضاً "إني ليحزنسني" لقطع إلحاحهم بتحقيق أن حزنه لفراق يوسف ثابت، تنزيلاً لهم منزلة من ينكر ذلك، إذ رأى إلحاحهم، ويسري التأكيد إلى جملة (وأخاف أن يأكله الذنب) وهذه الجملة تدلّ على أن القصة قائمة على التنبؤ لما سيحصل في المستقبل.

وإذا كان يعقوب -عليه السلام- قد أكدّ حزنه، إلّا أنه لم يؤكد غفلتهم (وأنتم عنه غافلون)؛ لأنه لا يشك في ذلك، وأنّ غفلتهم عن يوسف أمر ثابت "بسبب إمعانهم باللعب والشغل باللهو والمسابقة، فتجري الذئاب على يوسف -عليه السلام-"<sup>(١)</sup>.

ولما كان ردّ الوالد صارخاً ورافضاً لإرسال يوسف معهم، باعتذاره لهم بعذرين: "بحزنه المتحقق على فراقه، وخوفه عليه من الذنب. كان جوابهم مهملًا لحزن والدهم، وهذا يدلّ على أنهم غير بارين به، وأجابوه بالشق الثاني الذي يشتمل بأصناف التوكيد في جملة (لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ) [يوسف: ١٤]، فالمؤكدات هي: (اللام الموطنة للقسم في "لَنْ"، وإنّ و لام الابتداء، "لام المزحلقة"، وإذا الجوابية) تحقيقاً لحصول خسراتهم على تقدير حصول الشرط، والمراد الكناية عن عدم تفريطهم في يوسف.

٥٢٥٤٦٩

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٣١/١٢.

وتدل جملة (ونحن عصبه) المؤكدة لمضمون الجملة، على اعتداد الإخوة بقوتهم، والفخر بالنفس، على عادة العرب الذين يعترفون بالكثرة، وقد وردت في قولهم، في آية سابقة، في قوله تعالى:- (لِيُؤْسَفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْبَانًا مِنَّا وَتَحَنُّ عَصْبَةً إِنَّ أَيْبَانًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [يوسف: ٨]، فهذه الآية تضمنت مضمون المشهد الذي حرك الأبناء ضد يوسف، وتعجبهم واستكثارهم لتفضيل الأب ليوسف وأخيه بنيامين، فهذه الآية تحتوي على مجموعة من المؤكدات وهي (لام الابتداء، والجملة الاسمية "ونحن عصبه"، وإن، واللام المرحلة).

وهذا الخبر " لازم الفائدة "، لأن الأبناء لم يكن فيهم من يشك في أن يوسف-عليه السلام- وأخاه، أحب إلى أبيهم من بقيتهم. ولكنه إنحرف أسلوبياً إلى دلالة استكثار محبة الوالد المفرطة ليوسف وأخيه بدليل اعتبار والدهم في ضلال مبين، والمقصود بالضلال هنا " الذهاب عن الصواب في الإفراط في محبة يوسف وأخيه، فالضلال هنا الحب الشديد " (١).

ودلت "إذا الجوابية" على محذوف تقديره:- (إننا إذا أكل الذنب يوسف والحال أننا عصبه لخاسرون)، وهذا ضرب من الإيجاز القرآني المعجز.

وقوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْبِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [يوسف: ١٥] متضمنة معاني بلاغية، تليق بجلال نبي الله يوسف -عليه السلام- الذي أوحى الله تعالى إليه، عندما ألقى في الجب، بأنه سيخبر إخوته بسوء صنيعهم، وهم لا يشعرون بأنه يوسف.

فجملة (لتنبئتهم) : فعل مضارع، اتصلت به اللام الواقعة في جواب القسم، ونون التوكيد الثقيلة، التي تزيده على الفتح؛ لتحقيق مضمونها، سواء أكان المراد منها الإخبار عن المستقبل أم المراد في الحال، ودلالة الخبر للإنسان والبشارة أي :- أن الله تعالى سيؤانس يوسف، في وحشته في الجب بالوحي والبشارة، وأنه سينبئ إخوته في المستقبل بما فعلوه معه، كما تدل نون التوكيد على القوة، واقترانها بالجملة الخبرية يستلزم تمكن يوسف من إخوته؛ لأن الإنباء بذلك لا يكون إلا في حال تمكنه منهم وأمن من شرهم، وقيل:- " إن الخبر (لتنبئتهم) فيه معنى الأمر أي:- وأوحينا إليه نبئهم بأمرهم هذا" (٢).

"جملة (وهم لا يشعرون)، فيها معنى الوعيد للإخوة" (٣)، وتقديم المسند إليه (هم)، لتقوية الحكم وتقريره، وهذا الحكم هو نفي شعور الإخوة، ومعرفة يوسف، وهذا الخبر تحقق في المستقبل في قوله تعالى: (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) [يوسف: ٨٩].

(١) الألوسي: روح المعاني، ٥١/١٣.

(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٣٤/١٢.

(٣) الزعشيري: الكشاف، ٤٢٤/٢، وبنظر: روح المعاني، ٣٨٩/١٢ - ٣٩٠.

وتحقّق غرض التعجب، في الأخبار التي تشتمل على القسم على لسان الإخوة في قوله تعالى: (قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) [يوسف: ٧٣]، وقوله تعالى: (قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) [يوسف: ٩١]. وعلى لسان من كان حاضراً عند يعقوب -عليه السلام- في قوله تعالى: - (قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) [يوسف: ٩٥].

فالجملّة الأولى (تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض) جاءت على لسان الإخوة، عندما اتهموا بالسرقة، فتعجبوا من رميهم بالسرقة، مع اشتهارهم في مصر بالعفة والصلاح، والتأكيد بـ (القسم واللام وقد) للمبالغة في نزاهتهم كأنهم قالوا: " ما جرى لنا الإفساد في بال، والسرقة من أعظم أنواع الإفساد، وما كنا نوصف بالسرقة" (١).

وجملّة (لقد علمتم) اعتراض بين القسم والمقسم عليه، فالمقام مقام تعجب من التهمة التي وجهت إليهم، وأريد إثبات البراءة، ونفي المجيء للسرقة، فالإعراض لإقامة الحجّة، على أنهم غير سارقين، وما جاءوا ليسرقوا بدليل " أنهم قد وفدوا على مصر سابقاً، واتهموا بالجوسسة، فتبيّنت براءتهم بما صدقوا يوسف - عليه السلام - فيما وصفوه، من حال أبيهم وأخيهم" (٢).

أما سياق التعجب في الآية (٩١) فقد جاء عندما كشف لهم يوسف -عليه السلام- عن نفسه، فهو مستعمل في لازم الفائدة، وهي علمهم ويقينهم بأن ما نال يوسف -عليه السلام- من عزة ورفعة، هو تفضيل من الله تعالى، وأنهم عرفوا مرتبته. وأوصلوا إقرارهم بعلو مرتبته، بالاعتراف المؤكد بخطئهم تجاهه، (وإن كنا لخاطئين)، واعترافهم -أيضاً- بذلك أمام والدهم في قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) [يوسف: ٩٧].

ونظرة تأمل في سياق الاعتراف، تظهر أنهم قالوا لأخيهم يوسف -عليه السلام- :- (وإن كنا لخاطئين) بـ (إن المخففة) وقالوا لأبيهم :- (إننا كنا خاطئين) بـ (إنّ المشددة)، وقد يتبادر إلى الذهن أنه كان ينبغي أن يكون التعبير بالعكس، فإنهم مع من أساءوا إليه إساءة مباشرة -أعني يوسف- كان عليهم أن يأتوا بـ (إنّ) المشددة، للدلالة على زيادة التوكيد، بخلاف التعبير مع أبيهم، غير أنك إذا أنعمت النظر وجدت الطريقة التي استعملها القرآن هي المثلى؛ فإن إخوة يوسف لما رأوا أباهم، وما حلّ به من جراء فعلتهم من الوهن، واللوعة، وحرقة الفؤاد، وذهاب عينيه من الحزن، دعاهم ذلك إلى توكيد الاعتذار، والاعتراف بالخطيئة، بخلاف حالة أخيهم، فإن الله أكرمهم بعدهم، وبوّأه مكانة عالية، ومكّن له في الأرض وكان فعلتهم تلك عادت عليه بالخير والرفعة،

(١) الألوسي: روح المعاني، ٢٦/١٣.

(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٩/١٣.

بعكس ما جرّ على أبيهم، فهناك فرق بين الحالتين، فكان الشعور بالخطيئة مع والدهم أكبر وأعظم فقالوا ما قالوا.

والذي يدل على ذلك السياق القرآني، فإن يوسف دعا لهم بالمغفرة دون أن يسألوها منه قال تعالى: (لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [يوسف: ٩٢] وأما أبوه فلم يستغفر لهم مع طلبهم الاستغفار منه وإنما وعدهم بالاستغفار قال تعالى: - (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [يوسف: ٩٧-٩٨] فوعدهم بالاستغفار في المستقبل، ثم انظر كيف جاء بـ (سوف) لا بالسين، و(سوف) أبعد في الاستقبال من السين مما يدل على عمق الأثر في نفسه.

أما الخبر التعجبي الممزوج بالاستنكار على لسان من كان حاضراً عند يعقوب -عليه السلام- في قوله تعالى: (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) [يوسف: ٩٥] فقد جاء رداً على قول أبيهم، في قوله تعالى: - (قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنُوْا) [يوسف: ٩٤] فالتأكيد على لسان يعقوب بـ (إن واللام)، لأن المخاطبين منكرون لما قاله، غير راضين من ذكر يعقوب لابنه يوسف، فجاء الخبر على لسانهم، مؤكداً بـ (القسم، وإن، ولام المزلحقة)، وهذا يدل على أن شبح يوسف -عليه السلام- ما زال ماثلاً أمامهم، ويعتبرون محبة يعقوب له ضرباً من الضلال المبين، ولذلك أكدوا خبرهم بمؤكدات أكثر مما جاء على لسان يعقوب -عليه السلام-.

وتأتي الأخبار المؤكدة على السنة النسوة، وامرأة العزيز، لتحقيق أغراض بلاغية، ومقاصد أسلوبية تتناسب والمقام الذي وردت فيه.

نبدأ بقوله تعالى: - (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ فذ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [يوسف: ٣٠] فجملة (إننا لنها في ضلال مبين) مؤكدة بـ (إن واللام)، للإنكار عليها، وبأنها تراود فتاه يوسف، وهو توبيخ وتشنيع بها. وتسمع امرأة العزيز ما قالته النسوة، بطريقة ما، دل عليها حرف الباء؛ (فلما سمعت بمكرهن)، فاعدت للنسوة مآدبة طعام، وآتت كل واحدة منهن سكينا، على عادة النساء المترفات، وأمرت يوسف بالخروج عليهن، فلما رأته تعجبن من جماله. هذا الموقف دفع المرأة إلى أن تعترف -مع التأكيد- أمام النسوة بمراودتها إياه. قال تعالى: - (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَةٌ لَّيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ) [يوسف: ٣٢]. فأدوات التوكيد (اللام، وقد التحقيقية) وقد انزاح الخبر هنا إلى معنى الفرح والابتهاج؛ لأنها وجدت نفسها على حق بافتتانها بيوسف، بعدما رأت ما حصل للنسوة كما يظهر في قوله تعالى (وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) [يوسف: ٣١]. فالموقف لصالحها، فاعترفت بما حصل من مرادة سابقة (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) [يوسف: ٢٤] وهذه

المرادة عن عزم وقصد وإرادة، وهذا يدل على أن المرأة لا تخجل من ذكر أسرارها الخاصة أمام بنات جنسها. بل أدى-الموقف الابتهاجي للمرأة للاستئثار بيوسف- عليه السلام- وحدها بدافع الغيرة، فجاء على لسانها الخبر التهديدي المتوعد، ليوسف المستعصم، والممتنع عنها امتناعاً بليغاً، في قوله تعالى:- (وَلَنْ نَمْ يَفْعَلُ مَا أَمْرُهُ لَيْسَ جَنَّتْ وَلَيْكُونُ مِنَ الصَّاعِرِينَ) [يوسف: ٣٢] فاشتملت آية التهديد على مجموعة من المؤكدات وهي (اللام الموطئة للقسم، ونون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الخفيفة) " ويدل تهديدها ووعيدها ليوسف على سلطانها على زوجها، رغم علمه بأمرها، واستغطاقه لكيدها، شأنه في ذلك شأن المترفين، العاجزين عن صد زوجاتهم، وإن نساء الأكابر في الأمصار، التي أفسدتها الحضارة كيداً وخداعاً، فهذه المرأة بجمالها لها سلطان على زوجها، بدليل أن جوابه بعد أن ظهرت له -حسب شهادة الشاهد من أهلها- أنها هي التي راودته<sup>(١)</sup>.

وكشف التأكيد الذي جاء على لسان امرأة العزيز عن مكنونها، وشوقها إلى يوسف، على الرغم من التهديد والوعيد، فتأكيد السجن بنون التوكيد الثقيلة دل على شوقها ليوسف، وليكون بالقرب منها، فتستطيع أن تراه، فكان هذا هو طلبها الذي تحرص عليه، فكان مقدماً في الكلام؛ لأنه اختيارها المفضل.

أما الخيار الثاني (وليكوناً من الصاعرين)، فقد أكد بالنون الخفيفة، لأن إذلال يوسف ليس مطلبها الأساس، ولا تميل إليه، فلم تؤكد مثلما أكدت خيار السجن.

وخلاصة القول: إن امرأة العزيز كانت أشد حرصاً على سجن يوسف، من أن يكون صاعراً، فزاد نوناً حيث اقتضى المقام زيادة التوكيد، وخفها حيث اقتضى تخفيفه. وفي هذا التوكيد، و تنسيقه، دلالة على نفسية المرأة تجاه يوسف.

. وجاء الخبر مؤكداً في قوله تعالى:- (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَذِيَعْمُونَ) [يوسف: ٦٨]. فالآية مسوقة للحديث عن يعقوب -عليه السلام-، وهي مؤكدة بـ (إن واللام المزحلقة) لتقرير مضمون الخبر وهو تعظيم سيدنا يعقوب -عليه السلام. " والنشاء عليه، بالعلم والتدبير، وأن ما أسداه من النصح لأبنائه، هو من العلم الذي آتاه الله، وهو من علم النبوة، وبالاستدراك في قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، فضل يعقوب ومرتبته عند الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

ويتجلى الخبر الدال على معنى التنبؤ، على لسان يوسف في قوله تعالى:- (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَنظَالِمُونَ) [يوسف: ٧٩] فجملة (إننا إذا لظالمون) مؤكدة بـ (إن، واللام) ومجيء (إذا الجوابية) التي سدت مسد جملة (أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده

<sup>(١)</sup> نقرة، النهامى: سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط١، ١٩٧٤، ٤٠٤-٤٠٥.

<sup>(٢)</sup> ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٥/١٣.

لظالمون). وفي هذا الكلام قَطَعَ أَمَلُ إِخْوَتِهِ فِي الْعَفْوِ عَنْ بَنِيَامِينَ، أَوْ فِي اخْتِذِ أَحَدِهِمْ مَكَانَهُ، فَنَسَحَبُوا مِنْ أَمَامِهِ، تَعْلُومُ الْكَأَبَةِ.

ويظهر في قوله تعالى: (وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِذْ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) [يوسف: ٥٣] الخبر المؤكد بـ (إِنَّ وَاللَّام) على الرغم من أن المخاطب " خالي الذهن، ولكنه أنزل منزلة المتردد الشاك، استخساناً، لأن النفس محتومٌ عليها بشيء غير محبوب أو مرغوب فيه <sup>(١)</sup>.

فالآية جاءت على لسان يوسف، قبل خروجه من السجن، عند سماعه خبر اعتراف النسوة، أمام الملك، فجاء مضمون هذه الآية على لسانه؛ -ليدل على أَنَّ النَّفْسَ، بطبيعتها، كثيرة الميل إلى الشهوات، وهو بهذا يتواضع لله تعالى، " لتلا يكون لنفسه مزكياً، ولجمالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، وهو شبيه بقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم - " أنا سيّد ولد آدم ولا فخر " <sup>(٢)</sup>. وقد قصد في الآية، إيراد نعم الله تعالى، لأن الفضيلة لا تأتي إلا بتوفيق الله سبحانه وتعالى، وكان يوسف يقول: - (إِنَّ نَفْسِي لَيْسَتْ بِرِيئَةٍ مِنْ ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ، إِلَّا مَدَّةَ رَحْمَةِ اللَّهِ النَّفْسَ بِتَوْفِيقِهَا لِلْبَعْدِ عَنِ السُّوءِ).

" وقوله (إِنَّ النَّفْسَ) بدلاً من (إنها لأماراة) لأن مراده التعميم أي: - أي نفس، وقوله (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) ولم يقل (إنه) إما للتعظيم، وإما للاستلذان <sup>(٣)</sup>.

ودخول (إِنَّ) بين الجملتين في الآية السابقة جعلها - كما يقول عبد القاهر - " مؤتلفة ومتحدة مع بعضها، كأن الكلامين قد أفرغاً وإفراغاً واحداً. وكان أحدهما قد سُبِكَ في الآخر، هذه هي الصورة، حتى إذا جئت إلى (إِنَّ) فأسقطها، رأيت الثاني منهما قد نجا عن الأول، وتجاوى معناه عن معناه، ورأيت لا يتصل به، ولا يكون منه بسبيل" <sup>(٤)</sup>.

وقد حقق الخبر المؤكد بـ (اللَّامِ وَقَدْ) دلالة التشويق في قوله تعالى: - (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ) [يوسف: ٧] فهذا الخبر. للتشويق والحث على تطلب الخبر والقصة بقصد الإعتبار بدليل قوله تعالى في نهاية القصة: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ) [يوسف: ١١١] إذ أكد أيضاً بـ (اللَّامِ وَقَدْ) التي للتحقيق) وهذا التأكيد من مظاهر التناسق بين بداية القصة ونهايتها.

<sup>(١)</sup> عتيق، عبد العزيز: علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥ - ١٩٨٥، ص ٦٥-٦٦.

<sup>(٢)</sup> صحيح مسلم، باب فضيل نينا محمد صلى الله عليه وسلم - على جميع الخلائق، ١٧٨٢/٤.

<sup>(٣)</sup> الزركشي: البرهان، ٤٩٥/٢.

<sup>(٤)</sup> الجرجاني: دلال الإعجاز، ٣١٦.

فالحقائق كثيرة لمن يسأل عن الآيات العظيمة في يوسف وإخوته، وهذا الافتتاح للقصة - بهذا التأكيد - لتحريك الانتباه والاهتمام، والتشويق لمعرفة مضمون القصة وأحداثها. ولعله يظهر - أن الخبر بأنواعه المختلفة قد حقق معاني بلاغية، ومقاصد أسلوبية، جاءت متسقة في دلالتها، مع الأساليب الأخرى، لتؤدي الغرض العام للقصة، والذي يتمثل بتثبيت العقيدة، وترسيخها في أفئدة المؤمنين من خلال الأحداث في القصة.

## المبحث الثاني - أسلوب التنكيرو :

من الظواهر الأسلوبية في سورة يوسف أسلوب التنكير، الذي يتعلق بالمفردة القرآنية، والنكرة :- "هي ما دلت على شيء لا بعينه"<sup>(١)</sup>، وهي الأصل في الكلمة لكونها مطلقة.

وخرج التنكير في سورة يوسف، إلى معانٍ بلاغية، ومقاصد أسلوبية، تستفاد من السياق النظمي الذي تقع فيه؛ "فكأنما السياق والمقام، هو الذي يصف النكرة ويحدد معناها"<sup>(٢)</sup>. بمعنى أن موقعها في نظم الكلام، وتأليفه هو الذي يهب لها الغرض البلاغي الذي يستفاد منها. وقد خرج التنكير في سورة يوسف - عليه السلام - إلى أغراض بلاغية عدة منها:-

- **التعظيم:-** والنكرة تدل في سياقها النظمي على دلالة التعظيم المتسقة مع دلالة الكثرة. وقد ورد هذا المعنى في آيات كثيرة، ومنها قوله تعالى على لسان يعقوب - عليه السلام - (قَالَ يَا بَنِيَّ لِمَ تَفْضُلُونَ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) [يوسف: ٥]، فقد وردت (كيداً) منكراً؛ لأنها مكرٌ عظيم في الإضرار بيوسف، وتسمية عزم الإخوة على إلقائه في الجب (كيداً) يقتضي أنهم دبروا ذلك خفية. وهذا ما حصل بعد التحذير، فكان يعقوب - عليه السلام - علم من تصرفات الأبناء تجاه أخيه، وحسدهم له، أنهم سيكيدون له كيداً عظيماً. ودلّ تقديم (لك) على أن يوسف - وحده - هو المستهدف بهذا الكيد العظيم لا غيره.

وثمة مبعث آخر لعظمة هذا الكيد، وهو أنه بسبب من الشيطان الذي يتصف بعداوة ظاهرة جليلة لجنس الإنسان. وتنكير (عدو) مفيدة للتعظيم والتعميم.

وتناغمت دلالة التعظيم مع التكاثر في قوله تعالى:- (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَلَكِّينَ) [يوسف: ٧]، فالتنكير وقع على (آيات) وهي علامات عظيمة الشأن، دالة على عظيم قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء. وفي قصة يوسف آيات كثيرة عظيمة ابتداءً من رؤيا يوسف وهو طفل، مروراً بكيد الإخوة له، وإلقائه في الجب، واسترقاقه في أرض مصر، ومحنة السجن، وظهور براءته، واستخلاص الملك له، وتمكينه في أرض مصر، حتى أصبح عزيزاً لها، والأحداث التي جرت بينه وبين إخوته، والتي انتهت أخيراً بلم شمل آل يعقوب، وتحقيق رؤياه. كل هذه الأحداث الكثيرة توحى بالعظمة التي مبعثها العزيز الحكيم.

وكشف التنكير عن عظمة يوسف - عليه السلام - ابتداءً من قوله تعالى على لسان الوارد:- (يَا بَشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ) [يوسف: ١٩] فتنكير (غلام) ، وتصدير الجملة بالنداء الموحى بالفرحة

(١) الملوي: الطراز، ١١/٢.

(٢) بدوي، أحمد: من بلاغة القرآن، ١٢٨.



العظيمة، لوجود من يستحق التعظيم، "فقد كان -عليه السلام- من أحسن الغلمان وأجملهم، حيث أعطي شَطْرَ الحُسْنِ" (١).

ومنه قوله تعالى بخصوص يوسف: - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) [يوسف: ٢٢] فتتكبير (حكماً وعلماً) للتعظيم؛ لأن مبعثه من الحكيم العليم (آتيناه) والمقصود بذلك، "الحكم هو النبوة، والعلم هو الشريعة، وتكبيرهما للتفخيم، أي: - حكماً وعلماً لا يكتفه كنههما، ولا يقدر قدرهما، أحد، وتعقب كون المراد بالعلم، تأويل الأحاديث" (٢).

وقد يكون مع التعظيم معنى النوعية، ولكنه نوع من العلم والحكم يتصف بالعظمة، وهو علم تعبير الرؤيا، كما جاء في السورة نفسها: - (ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) [يوسف: ٣٧].

ومن معاني التعظيم التي دل عليها التتكير -أيضاً- قوله تعالى: - (نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) [يوسف: ٧٦]، فتتكبير (درجات) للتعظيم؛ لأنها مستعارة لقوة الشرف، من استعارة المحسوس للمعقول، وإعرابها تمييز لتعلق فعل (نرفع) بمفعوله وهو (من نشاء)، أي نرفع رتباً كثيرة عالية من العلم من نشاء من عبادنا المحسنين.

وجملة (نرفع درجات) تدل على أن ذلك سنة الله الجارية في عباده الصالحين، وفي نون العظمة، تعظيم لشأن المرفيع -عز وجل- وآخر مفعول (نرفع) وهو (من نشاء) للاعتناء بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر.

وتتكبير (عليم) في الآية مع صيغة المبالغة، دال على فخامة شأنه -عز وجل- وجلال علمه المحيط، الذي ليس له نهاية.

وقد جاء التتكير على لسان الملك مكرماً ليوسف، ومعظماً له، كما في قوله تعالى: - (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) [يوسف: ٥٤]. أي: - ذو مكانة رفيعة، ومؤمن على كل شيء.

وخلاصة القول. إن النكرة التي سبقت في الآيات، بخصوص يوسف -عليه السلام-، أفادت مقصداً دلاليًا هو التعظيم.

وعلى لسان يعقوب جاء قوله تعالى: (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا) [يوسف: ٨٣، ٨٤] فقد جاءت (أمراً) منكرة في سياقَي الآيتين، دالة على التعظيم، أي: - أمراً عظيماً جلالاً من الأمور المنكرة التي لا توصف ولا تُعرَّف. والمخاطب، في الآيتين، هم أبناؤه، وسياق الأولى عندما جاء الأبناء عشاءً يبكون بكاءً متصنعاً، بحجة أن الذنب قد أكل أخاهم يوسف، فأدرك الأب كذبهم وأنهم كادوا ليوسف كيداً عظيماً منكرًا.

(١) الألوسي: روح المعاني، ٣٩٥/١٢.

(٢) المرجع السابق، ٤٠٠/١٢.

أما سياق الآية الثانية؛ فقد جاء بعد عودة الأبناء، من مصر، دون بنيامين، شقيق يوسف، وكان موقفه-عليه السلام- من كلتا المصيبتين أنه جهز نفسه لصبر جميل، فتكبير (صبر) دال على الكثرة الموسومة بالجميل، أي:- لا شكوى فيه إلا لله تعالى.

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب-عليه السلام- أيضاً:- (قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ) [يوسف: ٦٦].

ومعنى الآية:- لن أرسل بنيامين معكم إلى مصر، حتى تعطوني ما أتوثق به يكون من عند الله، " لأن الحلف بالله مما تؤكد به العهود، وتُشدد، فالتكبير يفيد التعظيم والتفخيم"<sup>(١)</sup>.

فيعقوب-عليه السلام- وظف النكرة لتسجم مع إيمانه واعتصامه بحبل الله، والصبر على ما قدره الله، فاستحق بذلك أن يكون عظيماً عند الله تعالى، كما ظهر في قوله تعالى:- (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [يوسف: ٦٨] فتكبير (علم) دل على كثرة العلوم التي خصه بها الباري- عز وجل- وهذه الكثرة توحى بالعظمة؛ لأنها من الله (لما علمناه)، وتأكيد الجملة بأن واللام لتحقيق مضمونها وتأكيد، وفي ذلك مزيد من التكريم والتعظيم.

وكشف التنكير عن قدرة المرأة على الكيد، وعظمتها ومن ذلك قوله تعالى على لسان العزيز: (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) [يوسف: ٢٨] فتكبير (عظيم) دال على معنى العظمة.

ومنه ما جاء على لسان النسوة في المدينة:- (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [يوسف: ٣٠] فالكلمات :- (نسوة)، (حباً) (ضلال) منكورة: فتكبير كلمة (نسوة)، وعدم التصريح بأسمائهن؛ لأن العبرة في القصة لا تتطلب هذا التصريح، إضافة إلى الثقل اللفظي الناتج عن ذكرهن بأسمائهن.

وتسكير (حباً) جاء للكثرة والتعظيم، لأنه شق شغاف قلبها، وهذا الخبر للمبالغة، فهو حب عظيم أصاب سويداء القلب.

أما (ضلال) أي في ضلال واضح، " والتتوين للتفخيم، والجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين في الآية، للوم والتشنيع بامرأة العزيز، والتسجيل عليها بأنها في أمرها، بمرادة فتاها، على خطأ عظيم"<sup>(٢)</sup>.

ومن المعاني المستفادة من التنكير:- غرض التقليل، وذلك ضمن سياق النظم، ويتجلى ذلك في قوله تعالى:- (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) [يوسف: ١٨]؛ فقد جاء الإخوة أباهم بقميص يوسف ملطخاً بدم غير دمه، يدعون أنه دمه، ليشهد لهم على صدقهم، فكان دليلاً على كذبهم، فنكر

<sup>(١)</sup> البرهنري: الكشاف، ٤٥٩/٢.

<sup>(٢)</sup> الألوسي: روح المعاني، ٤١٧/١٢.

كلمة (الدم) لقلته، ووصف بـ (الكذب) مبالغة في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه، حتى كأنه هو الكذب بعينه، والكذب مصدر سدّ مسدّ اسم المفعول (مكذوب) للمبالغة. كما يقال: - شاهد عدل بدلاً من شاهد عادل.

وشبيهه بالآية السابقة قوله تعالى: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) [يوسف: ٢٠] أي: - قليلة تُعدّ عدداً، ولا توزن؛ لأن الكثير يمتنع عنها لكثرتها، وعن ابن عباس كانت عشرين درهماً<sup>(١)</sup>.

والتعبير بـ (شروه) دون (باعوه)، يوحي بتكريم نبي الله يوسف -عليه السلام- فالآية لم تعبر عن بيعه بلفظ البيع، الذي يكون للعبيد، وإنما جاءت بلفظ من الأضداد ليكون بالتعبير به، تخفيفاً لوقع العبارة في النفس<sup>(٢)</sup>.

واستخدم القرآن كلمة (قليلاً) نكرة، لدلالة التقليل، وقد كان اللفظ دالاً على ذلك وفق السياق، في موضعين، الأول قوله تعالى: - (فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَخْتَصِنُونَ) [يوسف: ٤٧، ٤٨] وهاتان الآيتان وردتا على لسان يوسف، عندما أفتى برؤيا الملك، فنصحهم بالادخار. وهذا يدل على حكمة يوسف، وعلمه؛ لأن بقاء القمح في سنبله يحفظه من التسوس. واستخدام حرف العطف (ثم) يدل على الترتيب والتراخي، أي: - ما بين القمح الموضوع في سنبله، والسبع الشداد فترة من الزمن.

واحتسبت بعض النكرات في السورة الكريمة، دلالتها التقليل أو التكاثر وهو ما يعبر عنه بدلالة "نفي الجنس" ومنه قوله تعالى: - (مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) [يوسف: ٣٨]، أي: - من شيء قليلاً كان أو كثيراً، وقد تفيد العموم<sup>(٣)</sup>. وقيل: - "إن التكاثر لإفادة العموم، و(من) زائدة لتنكير العموم، ويجوز أن تكون (شيء) للتقليل أو التكاثر، أي: - ويكون المعنى، شيئاً من الإشراف قليلاً أو كثيراً"<sup>(٤)</sup>.

وشبيهه بذلك قوله تعالى على لسان النسوة: - (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) [يوسف: ٥١]، فتنكير (سوء) فيه دلالة على تنزيه يوسف -عليه السلام-، وتعجب من عفته، وقد نفى جنس السوء، بالتكثير، وزيادة (من)، لتأكيد نفي السوء، قليلة أو كثيرة.

(١) الزمخشري: الكشاف، ٤٢٧/٢.

(٢) حسان، ممام: البيان في روائع القرآن، ٢٩٩.

(٣) الأندلسي: البحر المحيط، ٣٠٩/٥.

(٤) الألويسي: روح المعاني، ٤٣٢-٤٣٣.

ومنه -أيضاً- قوله تعالى: (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) [يوسف: ١٠٤]، قال الزمخشري: - " تنكير (أجر) للتقليل و التكثر، أي: - منفعة أو جدوى سواء قليلة أم كثيرة " (١).

يتبين من الآيات التي حملت دلالاتي التقليل والتكثر، وجاءت في سياقات النفي، أنها صدرت على لسان يوسف بحق الله، أو على لسان النسوة بحق يوسف، لنفي جنس السوء عنه، وفي ذلك تأكيد على إيمان يوسف بالله إيماناً صادقاً، ونزاهة يوسف وعفته نزاهة كاملة .

### ويفيد التنكير دلالة التحقير. وهذه الدلالة تليق بالأقوام الكافرة التي لا تؤمن بالله كما

ورد في قوله تعالى على لسان يوسف: - (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَدِيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [يوسف: ٣٧] فتتكبير (قوم) جاءت لتحقيرهم؛ لأنهم يستمرون بالكفر، وتعبير يوسف بالترك، في غاية البلاغة، فهو ليس تركاً عن اعتقاد سابق بعقيدة الملة، بل هو ترك بمعنى الرفض، وعدم الاتباع أصلاً، ولكنه أثر هذا التعبير؛ ليرغب الفتية بعقيدة التوحيد: - ويمكن أن تكون النكرة دالة على معنى العموم، أي: - إنني تركت ملة أي قوم، في كل زمان ومكان، لا يؤمنون بالله.

وتحقق معنى التحقير في قوله تعالى على لسان يوسف: - (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) [يوسف: ٤٠] فقد نكر (أسماء)؛ " لأنها فارغة لا مطابق لها في الخارج، لأن ما ليس فيه مصداق، إطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلاً، فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط، ولم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام، من إسقاطها عن مرتبة الوجود" (٢).

### ومن المعاني التي يحققها أسلوب التنكير: - الإبهام - وهو عنصر من عناصر

الإشارة في الكلام، لما له من أثر بالغ في النفس، وتحقق هذا المعنى في سورة يوسف في مواضع منها قوله تعالى على لسان الإخوة: - (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ) [يوسف: ٩] قال الزمخشري: - " أي اطرحوه أرضاً منكورة مجهولة، بعيدة عن العمران، وهو معنى تنكيرها وإبهامها، وإخلائها من الوصف، وإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة " (٣).

وقصدُ الإخوة أرضَ مجهولة لأبيهم، ليحصل اليأس من اجتماعه مع ابنه، وتتكبير (أرضاً) مصورة لنفوس الإخوة، وهم يتآمرون ضد أخيه الصغير يوسف، من أجل أن يخلو لهم وجه أبيهم محبةً وصفاءً، وإطلاق (الوجه)؛ لأنه عنوان المحبة والإقبال، فهو مجاز مرسل، علاقته الجزئية.

(١) الزمخشري: الكشاف، ٤٧٩/٢.

(٢) أبو السعود، محمد: تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العفل السليم، نج. عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، د.ت، ١٤٨/٣.

(٣) الزمخشري: الكشاف، ٤٢١/٢.

ودل معنى الإبهام على حصافة يوسف وذكائه في تكثيره كلمة (أخ) في قوله تعالى: - (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالِ انْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ) [يوسف: ٥٩]. فالمخاطب إخوته، وقد أمرهم بالإتيان بأخيهم بنيامين بعد أن أكرمهم، وجهزهم بما يريدون من طعام، والتكثير يدل على أنه ليس هناك شيء من علم عند العزيز - يوسف - بأخيهم من أبيهم، وهذا مسعف للهدف الذي يرمى إليه يوسف من عدم الكشف عن شخصيته لإخوته، بينما التعريف - بطبيعته - يوحى بشيء من العهد بين المتكلم، والمخاطب، " الا ترى فرقاً بين، مررت بغلامك، ومررت بغلام لك، إنك في التعريف تكون عارفاً بالغلام، وفي التكثير أنت جاهلٌ به، فالتعريف يفيد نوع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب، والتكثير لا عهد فيه البتة" (١).

وشبيهه بالأية السابقة ما جاء على لسان الإخوة، لما وجد صواع الملك في رحل بنيامين، فجاءوا بالتكثير الدال على معنى الإبهام لإبعاد المعرفة عن أنفسهم قوله تعالى: - (إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) [يوسف: ٧٧]، فتكثير (أخ)؛ لأن الحاضرين لا علم لهم به. ويوحى التكثير على أن نفوس الإخوة ما زالت كدرة، فالأخ المنكور هو يوسف، الذي تخلصوا منه من قبل، وما زالوا يذكرونه بالسوء.

وخرجت النكرة إلى معنى الكثرة المتداخلة مع النوعية، كما ورد في قوله تعالى: - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) [يوسف: ١٠٩]، فتكثير (رجالاً) دال على جنس الرجال، لأن الله لم يرسل ملائكة، وهؤلاء الأنبياء هم كثر. فاقْتَصَارُ الإرسال على الرجال دون الملائكة. أما تنكير (غاشية) في قوله تعالى: - (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ) [يوسف: ١٠٧] فقد جاء لدلالة النوعية، "فهي النعمة التي تغشاهم، وقيل: - ما يغمرهم من العذاب ويجللهم، وقيل: - الصواعق" (٢). فهذا العذاب نوعٌ خاص غريب مميز عن سائر العقوبات، فيه دلالة على العظمة والتهويل.

وتميل النكرة إلى إفادة معنى التعميم والاستغراق لكل أفراد الجنس، وقد ورد هذا المعنى في سورة يوسف، للإشارة إلى قدرة الله تعالى المهيمنة على كل الأمور، من ذلك قوله تعالى: - (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [يوسف: ٢١] فقد جاءت الآية تعقيباً على تمكين الله تعالى ليوسف في بيت العزيز، تمهيداً للتمكين له في أرض مصر، فإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، إِذَا أَرَادَ شَيْئاً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فلا يمكن للإرادة الضعيفة للإخوة الضعفاء، أن يفعلوا شيئاً بأخيهم الصغير يوسف، لم يردده الله تعالى له.

(١) الأندلسي: البحر المحيط، ٣١٩/٥.

(٢) الزعرشري: الكشاف، ٤٧٩/٢.

فاللفظ (غالب) ذو دلالة قوية على الغلبة المطلقة للواحد القهار، وتأمل حرف الجر الدال (على) العلو اللائق بجلال الواحد القهار، فالآية تشير إلى قدرة الله تعالى المهيمنة على كل الأمور.

وشببه بالآية السابقة على لسان يوسف بشأن النسوة قوله تعالى :- (إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) [يوسف: ٥٠] فتنكير (عليم) مع الإتيان بصيغة المبالغة فيه دلالة على فخامة شأنه - عز وجل - وجلال مقدار علمه المحيط، مفهوم عام وشامل. لكل جنس العلم.

ويدل التنكير أيضاً على معنى الوحدة، ويكون المراد عليماً واحداً، فيكون للنكرة دلالات الوحدة والتعظيم والعموم، التي تليق بجلال وجهه الكريم، فهو لا يحتاج إلى التخصيص.

ومن المعاني الدالة على العموم والاستغراق قوله تعالى في نهاية السورة: - (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [يوسف: ١١١] فتتكرر (عبرة وهدى ورحمة) جاء لمعنى العموم والاستغراق، وهذا يتسق مع أهداف القصص القرآني وعبراته وعظاته، غير المحصورة، فليس المقصود عبرة واحدة، وإنما عموم الجنس، وهذه العبر يستفيد منها أصحاب العقول النيرة.

وتأمل كلمة (قوم) فقد جاءت نكرة بحق المؤمنين، بينما جاءت اللفظة معرفة بحق المجرمين، في قوله تعالى: - (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) [يوسف: ١١٠]. فمجيتها معرفة للدلالة على قوم معينين رفضوا اتباع هذا النبي أو ذاك، فحلت بهم نعمة الله الكبير المتعال.

أما بخصوص المؤمنين فقد جاءت منكرة، للدلالة على أن الهدى والرحمة شاملان لكل قوم مؤمنين في كل زمان ومكان، ودلّ التعبير بالفعل المضارع (يؤمنون) على استمرارهم على الإيمان، والوصف بالإيمان دون غيره من الصفات، دالّ على الغاية في التصديق بآيات الله تعالى، وفي هذا تعريض بالقوم الكافرين الذين لم ينتفعوا بما في الآيات من العبر والعظات بسبب كفرهم.

ومن معاني التنكير، الدلالة على الوحدة (الإفراد)، إضافة إلى عدم الجدوى من ذكر الاسم العلم، وتجلي ذلك في مواضع عدة منها: - قوله تعالى: - (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَدَتَّقَتْلُوا يُوسُفَ) [يوسف: ١٠]، (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) [يوسف: ٢٦]، (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ)، [يوسف: ٣٦]، (ثُمَّ أُنزِلَ مِنْ سَمَاءٍ مَائِدَةٌ تَحْمِلُ الْبُرْجَانَ) [يوسف: ٧٠]، فالكلمات المنكرة جاءت دالة على واحد من أفراد الجنس، أو اثنين في الآية (٣٦) إضافة إلى عدم التصريح بالاسم العلم، وتوجيه ذلك إلى أن الغاية والعبرة تكمن في أحداث القصة، التي تتطور تدريجياً للوصول إلى الغاية وهي تمكين يوسف في أرض مصر، وتحقيق رؤياه. وما ورد على السنة هذه الشخصيات من شأنه أن يطوّر هذا الحدث أو الأحداث، ومن ثم فلا جدوى من ذكر الاسم العلم.

فتنكير (قائل) جاء سترأ على المسيء من الإخوة، وكل واحد من الإخوة مسيء، وإن

تفاوتت مراتبها، وإن كان هذا (القائل) من أقلهم إساءة ليوسف؛ لأنه اقترح عليهم إلقاءه في الجب المعهودة للناس.

أما تنكير (شاهد) الموصوف بكونه من أهلها، فلأن المهم شهادته التي تؤدي إلى إظهار الحق ببراءة يوسف، "وتجنباً لما في اسمه العلم من ثقله اللفظي الذي لا داعي له" (١). ولما بين الحق استحق أن يسمى (شاهداً).

ويظهر التناسب بين المسند والمسند إليه في الآيات السابقة (قال قائل) و(شهد شاهد) و (أذن مؤذن)، وهذا من جمال التعبير القرآني المعجز، المناسب للمقام ومقتضى الحال.

ومهما يكن، فإن التنكير في سورة يوسف يأتي "لفوائد جزلة، يقصر عن إفادتها العلم، ولا يبلغ كنهها رسم القلم" (٢). ولعلّ فيما أوردناه عن أسلوب التنكير يعدّ كاشفاً عن الأنماط التعبيرية، والأغراض الأسلوبية، التي تحقّقها النكرة في سورة يوسف، وقد جاءت هذه الأغراض متنسقة تماماً مع النماذج البشرية في القصة، كشخصيه يعقوب ويوسف-عليهما السلام-، ونفسيه الإخوة، وطبيعة الشخصيات الثانوية وموقفها من يوسف-عليه السلام-.

إن ظاهرة التنكير بوصفها ملمحاً تعبيرياً بارزاً في السورة، أدت وظيفة دلالية، تفوق مجرد الوظيفة اللغوية.

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٢٤/١٢.

(٢) بنظر: الطراز، ١٣/٢.

## المبحث الثالث - أسلوب التعريف :

التعريف ضد التكرير، وهو الإعلام. وله أساليب وصور متعددة، يتعلق بها أغراض محددة، وغرض المتكلم من التعريف، هو الذي يملئ عليه أسلوب التعريف الذي ينزع إليه فيراه محققاً ما في نفسه؛ لأن لكل أداة من أدوات التعريف طعماً ومذاقاً يختلف عن الآخر، والذي يحدد الاختلاف تقل الكلمة، ومكانها، وقيمتها عند المخاطب، فالضمير غير اسم الموصول، غير التعريف بـ (ال)<sup>(١)</sup>.

والتعريف هو "ما دلّ على شيء بعينه"<sup>(٢)</sup>، غير أنه يكمن وراءه أسرار ومزايا بلاغية، تتجلى لمن أمعن النظر في سياقات الكلام، ووقف على مواقع أجزائه؛ لأن المعرفة لها دلالاتها وإيحاءاتها التي لا تكون للنكرة. وأنواع المعارف هي:- الضمائر، والعلم، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، والمعرف بـ (أل)، والمعرف بالإضافة.

وللتعريف في سورة يوسف معانٍ بلاغية، ومقاصد أسلوبية، تتجلى للقارئ من خلال النظر في الآيات الكريمة، وتأمل سياقاتها، والوقوف على قرائن أحوالها.

### ١) التعريف بالإشارة :

وهو من أنواع التعريف في سورة يوسف، إذ شكّل ظاهرة أسلوبية جديدة بالدراسة، واسم الإشارة هو "ما دلّ على مسمى، وإشارته إلى ذلك المسمى"<sup>(٣)</sup>. ومن أنواعه الإشارة إلى المذكر القريب (هذا)، والمؤنث القريب (هذه)، والمذكر البعيد (ذلك)، والمؤنث البعيد (تلك) والمذكر البعيد المقترن بالكاف (كذلك)<sup>(٤)</sup>.

ومن أهم الأغراض البيانية للتعريف باسم الإشارة، تعظيم المشار إليه، وبيان رفعة وسموه؛ من ذلك قوله تعالى: (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) يوسف: ١] فالإشارة (تلك) مع قرب المشار إليه، للإيدان بعلو رتبة الكتاب المبين، وارتفاع شأنه، وكونه في الغاية القصوى من الفضل والشرف. ومثله قوله تعالى في نهاية السورة: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) يوسف: ١٠٢، أي: "ما ذكر من أنباء يوسف -عليه السلام- نوحيه إليك يا محمد، وما فيه من معنى البعد، لعلو منزلته ودرجته"<sup>(٥)</sup>. والقرآن يلجأ إلى التكتيف عندما يستخدم أسلوب التعريف، فبالنظر في الآية

(١) السلطان، منير: بلاغة الكلمة والجملة والجميل، ط٢، منشأة المعارف الاسكندرية، ١٩٩٣م، ص٣٧.

(٢) العلوي: الطراز، ١١/٢.

(٣) ابن هشام، جمال الدين: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، نج. حنا الفاعوري، دار الجيل - بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص١٥٧.

(٤) وردت هذه الأنواع في السورة الكريمة في ست وعشرين آية.

(٥) أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ١٩٠/٣.



يتبين لنا أنّ عظمة المشار إليه، وهو قصة يوسف، كانت من علم الغيب، فـ (أل) في لفظ (الغيب) لعموم الأحوال، فإنه أي ذلك النبا العالی الرتبة من أخبار الغيب، التي لها شأنٌ عظیم، " والتعبير بصيغة المضارع (نوحیه إليك) تصويرٌ لحال الإحياء الشريف، وإشارة إلى أنه لا يزال معه، يكشف له ما يريد" (١). وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة المستتر (نحن)، العائد على الاسم الشريف (الله)، فيه مزيد من التكريم والتشريف، للموحي إليه، محمد -صلى الله عليه وسلم- ودلّ الإلتفات في التعبير (نوحیه إليك) إلى أطراف العلاقة وهم ضمير المتكلم (الله) وهو الموحي، وضمير المخاطب (إليك) وهو الموحي إليه (محمد)، ومضمون الوحي، وهو أحسن القصص كما بينه قوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) [يوسف: ٣]، فالإشارة (هذا) مع قرب المشار إليه وهو القرآن، للدلالة على العظمة التي تليق بجلال الكتاب المبين، الذي أوحاه الله إلى أشرف خلقه محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وتقديم الضمير المنفصل (نحن) -الدال على (الله) - على خبره الفعلي (نقص)، لتأكيد حكم القصص وتقويته. واللام في القرآن دالة على الكمال، وفي هذا زيادة في التميز، إذ جمع له طرق التعريف كلها، وهي الإضمار، والعلمية، والإشارة، والإضافة، وهذا من أسلوب التأكيد الذي يلجأ القرآن إلى استخدامه، وفي هذا تعظيم للقرآن، وللمنزل عليه النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-. ويتجلى المقصد الأسلوبى الدال على التعظيم في قوله تعالى :- (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) [يوسف: ٣٢] فالمشار إليه يوسف -عليه السلام- بما يشار إليه للبعيد مع قرب المشار إليه، وحضوره، قيل:- " رفعا لمنزلته في الحسن عليه السلام، واستبعادا لمحلّه فيه، وإشارة إلى أنه لغرابته بعيد أن يوجد مثله، وتبنيها على كون يوسف مستحقا أن يُحب ويُفتن به" (٢).

ويستخدم القرآن اسم الإشارة في سياق العلم، والدعوة إلى الله، ونشر عقيدة التوحيد، وهذا ما فعله يوسف -عليه السلام- في السجن، من ذلك قوله تعالى:- (قَالَ لَدِيَاتِكُمْ طَعَامٌ تَرْزُقَانِهِ إِلَهُ نَبَاتِكُمْ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمْتَنِي) [يوسف: ٣٧] وقوله تعالى في السياق نفسه:- (وَأَتَّبَعْتُم مِّلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) [يوسف: ٣٨].

فاسم الإشارة في الآية الأولى (ذلكما)، للعلم الذي علمه إياه الله وهو التأويل، والإخبار بالغيب، والإشارة بالسبب لتعظيم المشار إليه. وفي إضافة نفسه إلى ربه تشريف وتعظيم ليوسف. واختيار لفظ (الرب) لأن المقام مقام دعوة إلى الواحد الأحد، لإبطال عقيدة الفتيين، وهي الأرباب المتفرقة.

(١) البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر، ط ١، دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، ١٠/٢٣٥.

(٢) الألوسي: روح المعاني، ٤٢٣/١٢، وينظر: ابن كمال باشا، ص ١٦٨.

وايثار لفظ (طعام)؛ لأنه رزق معلوم للجميع إذ تقوم عليه حياتهم في السجن. وتكثيره للإبهام؛ أي طعام، وفي هذا مزيد من الترغيب لهما.

أما الإشارة في الآية الثانية فقد جاءت تعظيماً للعقيدة التي تفضل الله بها على آل يعقوب، وعلى الناس عموماً، وإضافة ضميره إلى أبائه (ملة آبائي) للتشريف والتعظيم وفي إضافة الفضل إلى الله (من فضل الله) تعظيم لهذا الفضل، وترغيب للناس باتباع عقيدة التوحيد. والتعريف في (الناس) لاستغراق الجنس، والتكرار لكلمة (الناس) في قوله (ولكن أكثر الناس لا يشكرون)؛ للتأكيد على أن الهدف من عقيدة التوحيد نشرها إلى جميع الناس.

وجاء في سياق التعظيم قوله تعالى: - (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) (يوسف: ٤٠) أي " الدين الثابت المستقيم الذي تعاضدت عليه البراهين عقلاً ونقلاً"<sup>(١)</sup>. وتعريف (الدين) بـ (آل)، " لإفادة اختصاص الله في الحكم، تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة، وهذا يفيد القصر"<sup>(٢)</sup>.

ويستخدم القرآن اسم الإشارة القريب (هذا)، للقرب الحسي، وإن كان المشار إليه أمراً معنوياً، وتجلي ذلك في قوله تعالى: - (وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) [يوسف: ١٠٠] وقوله تعالى: - (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ) [يوسف: ١٠٨].

فتأويل رؤيا يوسف تمثلت بسجود إخوته له سجود تحية، وهذا قرب حسي، أضفاه التعبير بـ (هذا)، وإن كانت هذه الرؤيا من قبل أمراً رؤوياً معنوياً. ثم إن الدعوة إلى الله أمر معنوي، لكن القرآن عبر عنه باسم الإشارة القريب (هذه) ليجعل منها سلوكاً يمارسه الرسول -عليه السلام- ومن اتبعه، وهذا يقتضي القرب. وإضافة (السبيل) إلى ضمير الرسول -صلى الله عليه وسلم-، (سبيلي) توحى باختصاصه بهذا الطريق؛ وهو الدعوة إلى الله تعالى، ورفض أي طريق آخر، وايثار صيغة المضارع (أدعو) التي تفيد التجدد والاستمرار؛ لأن الدعوة إلى الله ينبغي أن تظل مستمرة.

إن الدعوة إلى الله، أمر معنوي عبر عنه القرآن، وجعله حقيقة حسية ممارسة. غير أن القرآن يستخدم الإشارة لاستحضار شيء ما سبق ذهنياً، فيفيد التقرير والتوكيد، ويظهر ذلك في قوله تعالى: (قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي) [يوسف: ٩٠]، فالإشارة حققت قرباً مكانياً وزمانياً، إضافة إلى تمييزه بالإخوة من جانبه والتعريف بأخيه باسم الإشارة، لتخيم شأن هذا الأخ.

(١) أبو السعود، ١٤٨/٣.

(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن ١٩٩١/٤.

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أن الآية " تهدف إلى أن تصف ذلك الشخص المائل أمام الإخوة بوصف جديد يجهلونه، وهو أن اسمه (يوسف)، كذلك قوله (هذا أخي)؛ لأن الأخوة كانوا يشاهدون بنيامين ويروونه بأعينهم، ويعرفون كل سماته، غير أنهم يجهلون أخوته للشخص المائل أمامهم" (١).

وتأتي الإشارة في القرآن لقصد التمييز المشار إليه في ذهن السامع في قوله تعالى: - (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا) [يوسف: ٩٣]، فقميص يوسف فيه خصوصية وتميز عن سائر أنواعه، وفيه سرٌ إعجازي، لأنه بمجرد إلقائه على وجه والده يعقوب يرتد بصيراً.

وقوله تعالى: - (هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلُنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) [يوسف: ٦٥]. فالإشارة (هذا) يشير إلى حالة القرب لشيء محسوس، بقصد تمييزه في ذهن أبيهم، لتبنيه إلى ما تفضل به عزيز مصر عليهم، برد بضاعتهم وهو أمرٌ غير متوقع يدعو إلى الفرح والسرور في ظل الظرف الصعب الذي تعاني منه المنطقة.

وثمة تطور مفاجيء كشفته الإضافة في قول الإخوة (أخانا) وهذا التطور يتعلق بسلوك الإخوة تجاه بنيامين، وهو سلوك ظاهره التودد والحنان، وباطنه مصلحة الحصول على الميرة والطعام. ويرى الزمخشري أن اسم الإشارة (ذلك) في آخر الآية لدلالة التقليل إذ يقول: - "ذلك مكيل قليل لا يكفيننا، أو ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك" (٢).

ويأتي اسم الإشارة للمدح والاستغراب، في قوله تعالى: - (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) [يوسف: ٣١] فالقصد تمييزه أكمل تمييز، بإحضاره في ذهن السامع، لاقتضاء الحال ذلك، كأن يكون المقام مقام المدح، بإجراء أوصاف الرفعة عليه، وكان يكون مختصاً بحكم غريب (ملك)، فإن تمييزه بالإشارة أدل على مدحه وتعظيمه، والإشارة الحسية لا يتأتى معها اشتباة أصلاً. وتكرار الإشارة دال على مدى التعظيم والإجلال، الذي يحظى به يوسف - عليه السلام - من النسوة. فالجملة الأولى وإن نفت كونه بشراً، إلا أن الثانية أكدت - بأسلوب القصر - كونه ملكاً، وذلك " لأن الله - عز وجل - ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك ولذلك يشبه كل مُنتابه في الحُسن به" (٣).

ومما يتصل بأسلوبية أسماء الإشارة، وما تحققه من أغراض استخدام اسم الإشارة المتصل بالكاف (كذلك)، إذ ورد في السورة من سبع آيات، وكل ما جاء بعدها " هو تعليق عام على الموقف، وليس جزءاً من القصة، وإن كان مرتبطاً بها بعلائق دينية، لكنه خارج عنها فنياً" (٤)، ثم

(١) أنيس، إبراهيم: من أسرار اللغة، ص ٣٠٣.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ٤٥٩/٢.

(٣) المصدر السابق، ٤٣٩/٢.

(٤) الطراونة، سليمان: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ١٨.

إنه يكشف عن أن مجريات القصة تسير بتنظيم ربانيّ دقيق، لا خلط فيها ولا اضطراب. وفاندها بيانياً، كما يرى أحمد بدوي "أنها للتحقيق والتوكيد أي: - تحقيق المعنى وتثبيتته" (١) فمن شواهدهما قوله له تعالى: - (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْآيَاتِ) [يوسف: ٦] فالإشارة إلى ما دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية ليوسف، " فكما اجتباها لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز، وكبرياء شأن، كذلك يجتبيك ربك لأمر عظيم" (٢).

فـ (كذلك) الكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة، ومحلها في الأصل النصب، على أنه نعت لمصدر محذوف والتقدير: يجتبيك ربك اجتباءً كائناً مثل ذلك الاجتباء، وقُدِّم على الفعل لإفادة القصر.

وفي اسم الإشارة من معنى البعد، مؤذن بعلو درجة المشار إليه، وبعد منزلته في الفضل وكمال تمييزه بذلك.

ومما هو شبيه بذلك قوله تعالى :- (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٢٢] فالإتيان باسم الإشارة " للتببيه على أن يوسف كان محسناً في عمله، متقياً في عفوان أمره، وأن الله أتاه الحكم والعلم، جزاءً على إحسانه" (٣).

والتعريف في (المحسنين) لاستعراق الجنس، ومعناه: - مثل ما جزينا يوسف نجازي من أحسن، وفي هذا تنشيط للنفوس، للإقدام على فعل الإحسان؛ لأن الله هو الذي يكافئ، وفي هذا تشريف للمحسنين.

ومهما يكن من أمر؛ فإن استخدام القرآن لاسم الإشارة في سورة يوسف، حقق مقاصده الأسلوبية في الاستدليل على المعاني المرادة، والتي ترمي في النهاية إلى تثبيت العقيدة في القلوب وبيان مآل الصالحين والمحسنين، أمثال يوسف -عليه السلام- إذ دلت الإشارة على علو منزلته ورفعته، وما آل إليه من الملك والسيادة، وفي هذا تسلية للرسول -صلى الله عليه وسلم-، وتثبيت له على طريق الدعوة إلى الله، رغم المشاق التي يواجهها.

## ٢) الاسم الموصول :

يشكل التعريف بالاسم الموصول ظاهرة أسلوبية بارزة في سورة يوسف، تستحق البحث والدراسة، وسميت الأسماء الموصولة بهذا الاسم "لأنها تفتقر إلى صلوات تبينها وتوضحها، لأنها لم

(١) بدوي، أحمد: من بلاغة القرآن، ص ٢١٦.

(٢) الزمخشري: الكشاف، ٤١٩/٢.

(٣) المصدر السابق، ٤٢٩/٢.

تفهم معانيها بأنفسها<sup>(١)</sup>، ويفهم من تعريفه، أنه يؤتى به عندما تكون صلته هي مدار الحكم يخرج بسببها إلى معانٍ وأسرارٍ بلاغية باعتبار القرائن ومقتضى الأحوال<sup>(٢)</sup>.

فمن دواعي التعريف بالاسم الموصول بناءً للخبر؛ وذلك بأن تكون الصلة سبباً للخبر، كقوله تعالى: - (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي) [يوسف: ٤٥] فجملة الصلة (نجا منهما)، هي سببٌ في الإنباء عن طريق إرساله إلى يوسف -عليه السلام - . كما أن جملة الصلة أفادت أيضاً أن هذا الرجل هو الذي سيحرك القصة فنياً، عن طريق إرساله إلى يوسف وما سيتبع ذلك من تطور في الأحداث تسبب في النهاية خروجه من السجن، واستخلاص الملك له.

كذلك قوله تعالى: - (وَالْأَجْرُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [يوسف: ٥٧] فمدار الحكم على جملة (آمنوا)؛ لأنها سبب في الحصول على أجر الآخرة؛ بمعنى أنه إذا كانت نتيجة الأجر في الآخرة خيراً (الجنة)؛ فإن السبب هو الإيمان والاستمرار في التقوى.

وتتجلى البلاغة القرآنية في جملة (آمنوا) إذ عبر عنها بالإيمان، لأن الإيمان يحصل دفعة واحدة، على حين جاءت جملة التقوى بالمضارع؛ لأنه يتجدد بتجدد الأحوال، ويحتاج إلى الدوام والاستمرار.

ومن المقاصد الأسلوبية للاسم الموصول: زيادة التقرير. نحو قوله تعالى: - (وَرَأَوْتَهُ الَّذِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) [يوسف: ٢٣] .

قال الزمخشري: - "المرادة مفاعلة، من راد يروود إذا جاء وذهب، كأن المعنى: - خادعته عن نفسه"<sup>(٣)</sup>. فمرادة امرأة العزيز ليوسف -عليه السلام- قررته جملة الصلة (هو في بيتها)، والعدول عن التصريح باسمها؛ للمحافظة على السر، أو للإستهجان بذكره؛ لأن الذكر تشريف، وإيراد الموصول دون امرأة العزيز أو (زليخا)، لتقرير المرادة، فإن كونه -عليه السلام- في بيتها مما يدعو إلى ذلك إضافة إلى ما سبق، فقد أظهرت جملة الصلة كمال نزاهته -عليه السلام- فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها، واستعصائه عليها، مع كونه تحت ملكتها، يناذى بكونه -عليه السلام- في أعلى معارج العفة والنزاهة<sup>(٤)</sup>. وهذا هو الغرض المسوق له الكلام، إذ إنه في بيت

<sup>(١)</sup> ابن الأنباري: أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد، أسرار العربية، نج: محمد حسين شمس الدين: دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص ١٩٠.

<sup>(٢)</sup> ينظر في الاسم الموصول وأغراضه البلاغية، الجرحاني: دلائل الإعجاز، ١٩٩، وما بعدها، القزويني، جلال الدين: شرح التلخيص في علوم البلاغة، شرحه وخرج شواهد، محمد هاشم دويجوري، دمشق، منشورات دار الحكمة، ١٩٧٠م، ص ٣٢.

<sup>(٣)</sup> الزمخشري: الكشاف، ٤٢٩/٢.

<sup>(٤)</sup> أبو السعود: إرشاد العقل السليم ١٢٧/٣.

المرأة، وهي متمكنة منه، وقد غلقت الأبواب وقالت: (هيت لك)، ومع ذلك أعرض ونأى، وقال : (معاذ الله)، وفي هذا تأكيد لعصمته -عليه السلام-.

كما وضحت جملة الصلة معاناة يوسف النفسية، فهو أمام امرأة تراوده باستمرار، لانفرادها به، وتفننها في التزين له، وإغرائه، مع الأخذ بعين الاعتبار أن يوسف -عليه السلام- كامل في رجولته. لكن برهان ربه يقف لكل ذلك بالمرصاد.

وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي (فاعل المرادة)، فقد بينت جملة الصلة أنها امرأة العزيز وحدها، وفي هذا دفع لأي احتمال لأن تكون المرادة صادرة من امرأة أخرى شبيهة بها. وفي إضافة البيت الى ضمير المرأة (في بيتها)؛ " لأن العرب تضيف البيوت للنساء؛ باعتبار أنهن القائمات بمصالحه، أو الملازمات له، إذ تقول العرب:- ربة البيت <sup>(١)</sup>.

ويأتي الاسم الموصول دالاً على العموم بمقصد التخويف، كقوله تعالى:- (قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [يوسف: ٢٥]. فالمرأة جاءت بالاسم الموصول (من) الذي يفيد العموم، " ولم تذكر يوسف صراحةً، لأن ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويفه <sup>(٢)</sup>، فإتيانها بلفظ عام لتحويل الأمر والمبالغة، ويظهر ذكاء المرأة في التعبير، إذ ذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز إعظاماً للخطب، وإغراء له على تحقيق ما يتوخاه، بحكم الغضب والحمية، وقد جمعت غرضين اثنين معاً، إحداهما: تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال (وهو مرادتها يوسف). وثانيهما: إلقاء الرعب في نفس يوسف؛ طمعاً في مواقفته في المستقبل.

وتأخير ذكر العذاب، " لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً، صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم، وأيضاً قد قالت (إلا أن يسجن) والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف <sup>(٣)</sup>.

ويستخدم القرآن الاسم الموصول العام - من خلال جملة الصلة- بقصد الترغيب، كقوله تعالى:- (قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) [يوسف: ٧٢] فجملة الصلة (جاء به) تؤدي إلى الجزاء المغري- في ظل ظروف القحط والجذب- وهو حمل بعير، فالصلة وجهت عقل السامع لمعرفة الخبر والجزاء فيتوقع من سمع الخبر وجاء بصواع الملك أن يحصل على المكافأة العظيمة وفي هذا ترغيب لكل من سمع بالخبر.

وإضافة الصواع إلى الملك لتشريفه، وتحويل سرقة؛ لأن المضاف يعظم بإضافته إلى العظيم.

(١) الألوسي: روح المعاني، ٤٠٢/١٢.

(٢) الزمخشري: الكشاف، ٤٢٣/٢.

(٣) الرازي: التفسير الكبير ١٢٢/١٨.

والتعريف في (الملك) للعهد؛ أي: ملك مصر، " وسماه القرآن هنا (ملكاً) ولم يسمه (فرعون)، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة، -ملوك مصر القبط-، وإنما كان ملكاً لمصر أيام حكمها الهكسوس، وهم العمالقة وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنه مؤرخو الإغريق بملوك الرعاء أي :- البدو، وهذا التعبير من دقائق إعجاز القرآن العلمي"<sup>(١)</sup>.

ومن أجل الأغراض البلاغية، التي يفيدها التعريف بالموصول غرض التعظيم، ونجد ذلك جلياً في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: **قَالُوا نَفَقْدُ صُوعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** [يوسف: ٦٦] ف (ما) اسم موصول يعود -أصلاً- على الميثاق، الذي أخذه يعقوب على أبنائه في قوله تعالى: - (حَتَّى تُوْتُوْنِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ) [يوسف: ٦٦] وهو ميثاق من الله وهذا سر عظمته.

وشبيهه بما سبق قوله تعالى مخاطباً النبي محمداً -صلى الله عليه وسلم- **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** [يوسف: ١٠٨] فجملة (اتبعني) فيها تعظيم لكل إنسان يدعو إلى الله، في كل زمن بغض النظر عن جنسه، مما يوحي بشمولية الدعوة الإسلامية حتى يأتي النصر من الله تعالى. كما يظهر في قوله تعالى: - (حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرَّسُلُ وُظِنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) [يوسف: ١١٠] فالاسم الموصول دالٌ على العموم، لقصد تعظيم هؤلاء المؤمنين " الذين يستأهلون أن يشاء الله نجاتهم"<sup>(٢)</sup>.

ويحقق الاسم الموصول في نهاية السورة دلالة التشريف، لما بين يدي الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو القرآن بكل ما يحويه من مواظٍ وعبرٍ انبثقت من قصص الأنبياء والمرسلين، يستفيد منها أصحاب العقول السليمة، وأن هذا القرآن فيه تفصيل لكل شيء باعتبارها منهاج الحياة للقوم الذين يؤمنون بالله. يقول سبحانه **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** [يوسف: ١١١]، فجملة الصلة (بين يديه) كناية عن القرآن العظيم .

### (٣) التعريف بـ (أل) :

يعد أسلوب التعريف بـ (أل)، في سورة يوسف ظاهرة أسلوبية، تشف عن معانٍ دقيقة، بناءً على سياقها النظمي. ويقسمها علماء النحو والبلاغة إلى قسمين: "العهد والجنس"<sup>(٣)</sup>؛ فالعهدية هي الداخلة على اسم للسامع معرفةً به لتقدم ذكره، وهي أنواع، منها ما يكون للعهد الصريح، ويسمى

<sup>(١)</sup> ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٨٠/١٢.

<sup>(٢)</sup> الزمخشري: الكشاف، ٤٨١/٢.

<sup>(٣)</sup> بنظر ابن هشام، جمال الدين: معني اللب عن كتب الأعراب، نج. محمد محي الدين عبد الحميد- المكتبة المصرية - صيدا - لبنان ١٤١٦

عهداً ذكرياً من شواهده في سورة يوسف قوله تعالى: - (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ) [يوسف: ٤٤]. فإن (أل) في لفظ (الأحلام) للعهد الذكري الصريح؛ لأنها سبقت بما يعرف عليها صراحة، وهو (أضغاث أحلام)، والمقصود وما نحن بتأويل أحلامك هذه بعالمين.

ويستخدم القرآن، في سورة يوسف، لفظ (الأرض) للدلالة على العهد الصريح. وقد وردت في مواطن متعددة في السورة<sup>(١)</sup>، منها قوله تعالى: - (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) [يوسف: ٢١] وكذلك قوله تعالى (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ) [يوسف: ٥٥] فـ (الأرض) هنا هي "الأرض المعهودة مصر"<sup>(٢)</sup> كذلك عبر القرآن عن مصر<sup>(٣)</sup> بلفظ (المدينة) في قوله تعالى: - (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ) [يوسف: ٣٠] ولفظ (القرية) في قوله تعالى: - (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) [يوسف: ٨٢].

ويجوز أن يكون التعبير عن مصر بـ (الأرض) أو (القرية) أو (المدينة) من باب الغلبة والشهرة. كما نقول: - المدينة المقدسة ونعني بها "القدس".

ومن أنواع (أل) العهدية أيضاً (العهد الذهني): - وهو أن يكون المعرف بـ (أل) معهوداً ذهنياً بين المخاطب والمخاطب. ومن شواهده في سورة يوسف قوله تعالى: - (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَوْلَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) [يوسف: ١٠] فالتعريف في لفظتي (الجب) و (السيارة)، للعهد الذهني؛ لأن الأخوة علموا أن الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر للتجارة والميرة؛ وللتعريف بـ (أل) هنا دلالاته النفسية، إذ ينم عن صحوة ضمير لهذا القائل الذي اقترح إلقاء يوسف في الجب المعروف المعهود، "فهو يرتعش لهول ما الأخوة مقدمون عليه، فيقترح حلاً يريحهم من يوسف، ويخلي لهم وجه أبيهم، ولكنه لا يقتل يوسف، ولا يلقيه في أرض مهجورة، يغلب فيها الهلاك، إنما يلقيه في الجب، الواقع على طريق القوافل، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدى القوافل، فتنتهذه وتذهب به بعيداً"<sup>(٤)</sup>.

ومثلها قوله تعالى: - (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أُخِيهِ) [يوسف: ٧٠] فالتعريف في لفظ (السقاية) للعهد الذهني، إذ لا يخلو من مثلها مجلس عظيم، كمجلس الملك. ويذكر ابن هشام أن (أل) "تأتي للعهد الحضوري في النداء، كما يقال يا أيها الرجل"<sup>(٥)</sup>، ويقاس على ذلك قوله تعالى: - (يَا أَيُّهَا الْمَثَلُ افْتُونِي فِي رُؤْيَايَ) [يوسف: ٤٣] وقوله تعالى: - (يَا

<sup>(١)</sup> ينظر أيضاً الآيات (٥٦)، (٧٣)، (٨٠).

<sup>(٢)</sup> الزمخشري: الكشاف، ٤٥٥/٢.

<sup>(٣)</sup> المصدر السابق، ٤٣٦/٢، وبنظر: ٤٦٧/٢.

<sup>(٤)</sup> قطب، سيد: في ظلال القرآن، ١٩٧٤/٤.

<sup>(٥)</sup> ابن هشام: مغني اللبيب، ٦١/١.



أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ) [يوسف: ٨٨]. فتعريف (الملا) بـ (أل) دلّ على الجماعة الحاضرة في مجلس الملك. كما دلّ التعريف في لفظ (العزیز) على الرجل الحاضر والمائل أمام الإخوة الذين يستعطفونه.

ويمكن اعتبار لفظ (العزیز) لقباً، لدلالة التعظيم، وهو بهذا يدخل في باب العلم. ويجوز أيضاً أن تكون (أل) للعهد الصريح إذ لا عزیز في مصر غيره.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: - (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) [يوسف: ٥٤] وقوله تعالى: - (الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) [يوسف: ٩٢] فإن (أل) في كلمة (اليوم) - الواردة في الآيتين - للعهد الحضوري. أي: - اليوم الحاضر الذي نحن فيه. ويجوز أن يكون (اليوم) في الآيتين لدلالة استغراق الجنس. أي: - كل يوم، فهو للعموم. هذا إذا أخذنا بالإعتبار أن تمكين يوسف عند الملك لا يقتصر على اليوم الحاضر، وإنما هو لجملة الأيام القادمة. ودلّ على ذلك اختفاء شخصية الملك من مسرح الأحداث بعد استخلافه يوسف لنفسه.

والنوع الثاني للتعريف بـ (أل) في نصوص سورة يوسف، (أل) الجنسية وشواهدها كثيرة. منها قوله تعالى: - (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَانِلِينَ) [يوسف: ٧] فـ (أل) في لفظ (السانلين) لدلالة على استغراق العموم، قال أبو حيان: - (لمن سأل ولمن لم يسأل فهي لعموم الجنس)<sup>(١)</sup>، ويمكن أن تكون للاستغراق العزقي، أي "لمن سأل عن قصتهم وهم أهل مكة"<sup>(٢)</sup>.

ومن دلالة (أل) على الاستغراق، قوله تعالى: - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٢٢] فإن التعريف بـ (أل) في لفظ (المحسنين) أفاد استغراق الجنس، والعموم في الحكم إذ يدخل كل واحد من أفراد جنس المحسنين، الذين "يؤتون بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف، فإن الله يعطيه تلك المناصب"<sup>(٣)</sup> ومن الممكن أن يكون المرء محسناً، ولكنه لا يكون نبياً، فالمناصب التي حصل عليها يوسف منها النبوة. وهذا فيه اختصاص لجنس الأنبياء.

وتتسجم دلالة الاستغراق مع طبقة العزیز الاجتماعية، بوصفه من ذوي الأخطار، والطبقة الراقية، والحاكمة، التي تعمم الأمور إذا كان في التخصيص، ما يشوه صورتها، من ذلك قوله تعالى على لسانه مخاطباً زوجته: (... يُوْسُفُ أَعْرَضَ عَنِّ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) [يوسف: ٢٩]، أراد في التعريف بـ (أل) من لفظ (الخاطئين) عموم جنس الخاطئين، "وأنها من

(١) أبو حيان: البحر المحيط ٥/٢٨٢.

(٢) الرازي: الكشاف ٢/٤٢.

(٣) الرازي: التفسير الكبير، ١٨/١١٠.

جملة القوم المتعمدين للذنب، وأكد الجملة لتعليل الخطيئة، وتذكير لفظ (الخاطنين) لتغليب الذكور على الإناث<sup>(١)</sup>.

وأرى أن الزوج عدل عن قول (الخاطنات)؛ لأنه أراد أن يعمم الأمر، ويهون من خطيئة زوجه، وكان ما قامت به من هم مقصود ليوسف، هو خطأ عام. وهذا ينسجم مع طبيعة هذا الرجل، ومركزه الاجتماعي.

ومن المواطن التي يلجأ فيها القرآن لاستخدام (أل) لدلالة استغراق الجنس قوله تعالى:-  
(وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِذَا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) [يوسف: ٥٣]  
فقد جاء التعريف بـ (أل) في لفظ النفس لإرادة كل فرد من أفراد جنس النفس (استغراق العموم).  
بمعنى: أن جملة النفس البشرية، تميل بطبيعتها إلى الشهوات بكثرة، وإلى جنس (السوء) وقد تجلت في الآية بلاغة المتكلم، إذ وضع المظهر موضع المضمرة في قوله: (إن النفس)، والأصل (إنها) الإضمار؛ لأنه سبق ما يدل عليها وهو (نفس). ولما كان المقصود التعميم لا التخصيص إلى التعريف بـ (أل)، وفي ذلك دلالة أسلوبية على تواضع يوسف لله تعالى، والبعد عن تزكية نفسه؛ لأن استعصامه عن مواجهة المرأة، كان برحمة من الله تعالى، والدليل على ذلك تكرير لفظ (نفس) في الآية، فمن الممكن أن يقول: (إلا ما رحم ربي، إنه غفور رحيم) ولكنه عدل إلى التصريح للتبرك باسمه تعالى، والتشرف بالإضافة إليه عز وجل، وتكريس الربوبية لله وحده، دون سائر الأرباب التي يعبدها المصريون.

والدليل على أن الآية من قول يوسف، قوله تعالى:- (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) [يوسف: ٢٤] أي: لنصرفه عن ماهية السوء والفحشاء، وحرف الجر (عنه) يوحي بأن جنس السوء والفحشاء، هو الذي يلاحق يوسف، وقدم (السوء) على (الفحشاء)؛ لأن "السوء جنابة اليد، ومقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بشهوة، والفحشاء هو الزنا"<sup>(٢)</sup>. وإضافة يوسف إلى ضمير العظمة (عبادنا)؛ للتشريف والتعظيم؛ فهو "ممن يخلصون في طاعتهم لله سبحانه وتعالى، واسم المفعول يدل على الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرتة"<sup>(٣)</sup>.

ويتجلى العنصر الإنساني في القصة في قوله تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) [يوسف: ٥٣] هي "لم تُسَقْ لمجرد الفن، إنما سيقت للعبارة والعظة، أو سيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة، ويرسم التعبير الفني فيها خفقات المشاعر، وانتفاضات الوجدان، رسماً رشيقاً في واقعية كاملة،

(١) الألويسي: روح المعاني، ٤١٥/١٢.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ١٢١/١٨.

(٣) السابق، ١١٧/١٨.

تناسق فيها جميع المؤثرات، وجميع الواقعات في مثل هذه النفوس، في ظل بيئتها، ومؤثرات هذه البيئة كذلك<sup>(١)</sup>.

ويستخدم القرآن (أل) التعريف، لاستغراق جنس (العالمين)، في قوله تعالى: - (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) [يوسف: ١٠٤]، وهذا الشمول يتلاءم مع عمومية الدعوة الإسلامية، وإنسانياتها، فالقرآن كتاب هداية، ومنهاج حياة لجميع الناس.

وتدل (أل) على الاستغراق العُرقي، في قوله تعالى: - (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) [يوسف: ٦٧] وقوله تعالى: (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [يوسف: ١٠١]، فالتعريف في لفظ (المتوكلون) يشمل كل الأفراد من جنس المتوكلين، ويمكن أن يراد به العموم على اعتبار كل المتوكلين، من جميع العصور.

أما التعريف بـ (أل) في لفظ (الصالحين) فقيل: "من أبائي أو على العموم"<sup>(٢)</sup>، وبذلك يكون استغراقاً عرفياً إذا قصد يوسف أباه، وعماماً إذا قصد كل الصالحين.

وتأتي (أل) الجنسية في القرآن، للدلالة على فرد غير معين من أفراد الجنس، في مثل قوله تعالى: - (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَةَ الذَّنْبُ) [يوسف: ١٣]، فالتعريف بـ (أل) في لفظ (الذئب) ليس مقصوداً بها الحقيقة؛ لأن حقيقة الذئب لا تأكل، وهي كذلك لا تدل على ذئب معين، بل المقصود أي ذئب من الذئاب، كأنه قيل: - (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ ذئب من الذئاب): "فـ (أل) تدل على ذات هذا الجنس دون تعيين، وهو تعريف شبيه بالنكرة في المعنى"<sup>(٣)</sup> أي: أن الذئب معرفة من حيث اللفظ، نكرة من حيث المعنى.

وثمة دلالات أخرى لـ (أل) أشار إليها علماء البلاغة كعبد القاهر الجرجاني، ومن هذه الدلالات المبالغة، إذ يقول: "وهي أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه، لقصدك المبالغة، وذلك قولك: زيدٌ هو الجواد، وعمرو هو الشجاع، تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجواد أو الشجاع لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره، لقصوره عن أن يبلغ الكمال"<sup>(٤)</sup>.

ومعنى كلام الجرجاني، أن (أل) التي تأتي في المسند (الخبر) المعرف بـ (أل) للمبالغة إضافة على معنى الجنس الأول. وقال صاحب الطراز: - "إذا دخلت اللام على الخبر، فإنها تأتي

(١) قطب: في ظلال القرآن، ٤/١٩٩٦.

(٢) الزمخشري: الكشاف، ٢/٤٧٨.

(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ١٢/٢٣١.

(٤) المرجاني: دلائل الإعجاز، ١٧٩.

لمقاصد أربعة، منها المبالغة في الخبر، فنقتصر جنس المعنى على المخبر عنه، كقولك (زيدٌ هو الجواد) ...<sup>(١)</sup>.

فمن الشواهد الدالة على معنى المبالغة في الصفة قوله تعالى (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [يوسف: ٣٤]، فالتعريف بـ (أل) في صيغة (السميع)، للمبالغة في بيان استجابة الله لمن تضرع إليه بالدعاء، فهو السميع للملتجئين إليه، العليم بأحوالهم ومثله قوله تعالى: - (قَالَ سَوْفَ أَسْتَفْرِغُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [يوسف: ٩٨] فالتعريف في لفظ (الغفور)، للمبالغة في بيان لطف الله بهم، ورحمته لهم. والجملة مؤكدة بأن وضمير الشأن الذي يفيد تقديمه، تقوية الحكم وتوكيده.

ويتجلى من سياق الآيات التي وردت معرفة بـ (أل) لصفات الله تعالى، أنها تفيد (الكمال) أي: ان الله - عز وجل - هو الكامل في هذه الصفات (السمع، والعلم، والمغفرة، والرحمة، والحكمة، ....) لا سواه. كما أن ضمير الفصل (هو) أضفى مزيداً من التأكيد على قصر هذه الصفات عليه عز وجل. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، وردت هذه الآيات<sup>(٢)</sup> التي تشتمل على أسلوب التعريف هذا - على لسان كل من يعقوب، ويوسف - عليهما السلام - وهذا دالٌ على يقينهما المطلق بكمال الله في الصفات العليا، واختصاصه بها دون غيره. وفي هذا تعليمٌ للناس (المخاطب) لكي يتوجه بدعائه إلى الله تعالى وحده، فهو حسبه.

وتأتي (أل) دالة على الكمال، في قوله تعالى: - (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) [يوسف: ١] فلفظ (الكتاب) المعروف بـ (أل)، ليس المقصود به الكتاب المعهود بينكم كفار قريش، إنما المقصود به، الكتاب الذي يختلف عن سابقه من الكتب، والذي دار حوله النقاش، والذي .... ، والذي ....، وهنا لا يصلح أن يكون مكان لفظ الكتاب المعرف ضمير، أو اسم إشارة، ومعناه: " هو الكتاب الكامل، كأنما ما عداه من الكتب في مقابلته ناقصة، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتاباً، كما تقول: (هو الرجل) أي: الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال"<sup>(٣)</sup>.

ومهما يكن من شأن؛ فإن التعريف بـ (أل) في آيات سورة يوسف، قد حقق مقاصده الأسلوبية، بما ينسجم ومقتضى الحال، والذي يؤدي إلى تحقيق المقصد الأسمى للقصة، وهو الهدف الديني.

(١) العلووي: الطراز ٢١/٢.

(٢) ينظر الآيات (٣٩)، (٨٣)، (١٠٠).

(٣) الرمحشري: الكشف، ٧٤/١.

## ٤) التعريف بالإضافة:

ويستخدم القرآن أسلوب التعريف بالإضافة، لتحقيق أغراض بلاغية، ودلالات معنوية ضمن السياق النظمي الذي ترد فيه؛ لأن الكلمة في الإضافة تتكون من عنصرين، كلٌ له كيانه، وحين جمع كلاهما وكونا كلمة واحدة، صار لهذا معنى آخر، مستقل عن معنى كل جزء من أجزائها. ومن هذه الأغراض البلاغية، تعظيم المضاف وتفخيمه، كما في قوله تعالى: - الرُّبُّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (يوسف: ١)، فإضافة الآيات إلى الكتاب، المتصف بالعظمة والكمال هو على سبيل التفخيم لهذه الآيات، وتعظيم شأنها.

وتضاف الضمائر -العائدة إلى يعقوب أو يوسف -عليهما السلام- إلى عنوان الربوبية (الرب) <sup>(١)</sup> لقصد التعظيم والتشريف، من ذلك قوله تعالى: - (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبُّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [يوسف: ٦]، فالضمير في لفظ (ربك) عائدٌ إلى يوسف، وفي الإضافة إلى اسم الرب - جلّ وعلا-، تعظيم ليوسف، وتشريفٌ له. وتكرار (ربك)، للدلالة على أهمية الربوبية، وغرض يعقوب -عليه السلام- تثبيتَه في ذهن ابنه، المرشح للاجتماع في المستقبل، بسبب ما دلت عليه رؤياه.

وفي إضافة لفظ (آل) إلى يعقوب تشريفٌ لهم. كما أن إضافة النعمة إلى ضمير الرب (نعمة) منحها التعظيم والإجلال؛ "لأنهما في حكم الأب بالأصالة"<sup>(٢)</sup>، وتقديم (إبراهيم) على (إسحاق) للسبق بالزمان.

ويظهر التنغيم الصوتي في التعبير (يجتبيك - ربك - يعلمك) دلالة اختصاص يوسف بالاجتماع، إضافة إلى الجمال الصوتي الناتج عن تكرار حرف (الكاف).

ويطلق لفظ (الرب) على السيد أو ملك مصر للتشريف "على عكس العرب التي تقول: السيد والمولى، ولا تقول: ربه لأن الطبقة الحاكمة في مصر كانت تؤمن أنها من نسل الأرباب فهي أميل إلى ادعاء الربوبية"<sup>(٣)</sup> وورد منها، قوله تعالى: - (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَأَنْفَلِحُ الظَّالِمُونَ) [يوسف: ٢٣]، فالآية وردت على لسان يوسف -عليه السلام- والمقصود بـ (الرب) سيده الذي أحسن مثواه، وهو العزيز (قطيفير)، حين قال لامراته: - أكرمي مثواه، وفي هذا مزيدٌ من الإكرام ليوسف إذ جعل مقامه كريماً حسناً. ويظهر الترتيب النظمي في الآية على غاية

<sup>(١)</sup> وردت في عشر آيات.

<sup>(٢)</sup> الزمخشري: الكشاف، ٤٢٠/٢.

<sup>(٣)</sup> الطراونة، سليمان: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ١٦٠.

الحسن والجمال، إضافة إلى تقديم (معاذ الله أولاً، لأن الانقياد لأمر الله أحق أن يأتي أولاً، ثم أشار -ثانياً- إلى أن حقوق الخلق واجبة الرعاية أيضاً، فجاء قوله: - "إنه ربي أحسن مثواي" فلا يجوز أن يقابل إنعامه بالإساءة إلى عرضه.

ولما كانت صيانة النفس عن الضرر واجبة، مع ما يصاحبها من لذة قليلة، تكون عاقبتها الخزي في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، اقتضى العقل تركها، والاحتراز عنها، فجاء قوله - ثالثاً- (إنه لا يفلح الظالمون).

ودلت الإضافة في قوله تعالى: - (أَمَا أَحَدَكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) [يوسف: ٤١]، على التلطف والتأدب في خطاب الفتيين؛ لأن قوله (أحدكما)، لا يعين صاحب المصير السيء، وفي هذا حفظ لمشاعر الفتيين.

وإضافة الكيد إلى ضمير النسوة في السورة فيه دلالة التعظيم، من ذلك قوله تعالى: - (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) [يوسف: ٢٨]، فالخطاب عام للنساء مطلقاً، "وتعميم الخطاب، للتنبية على أن الكيد، خلق للنساء عريق"<sup>(١)</sup>.

وإذا تتبعنا الكيد الذي توصف به المرأة، فيحمل دلالات نفسية، فقد جاء وصفهن به مرتين على لسان يوسف -عليه السلام- ومرة على لسان العزيز<sup>(٢)</sup>، وهو كيد يعهد في المرأة، وله دلالة تتسجم مع تكوينها، وطباعها، وما جبلت عليه من الحيلة والدهاء، حتى في تعامل النسوة مع بعضهن، جاء تعبير المكر الذي له علاقة مباشرة بالكيد المعهود في المرأة، في قوله تعالى: - (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً) [يوسف: ٣١] فالمكر يكون خفية، وهو قول النسوة: "عشقت عبدها الكنعاني"<sup>(٣)</sup>.

ودل السياق على أن امرأة العزيز، لم تسمع كلام النسوة سمعاً مباشراً، بدليل المجيء بحرف الباء "بمكرهن" فامرأة العزيز ترغب في أن تسمع لكل ما يقال عنها، وجاءت الباء لتبين لنا، أن هذا السماع إنما كان بواسطة، وهذا يؤكد عدم زيادة الباء، فلو قيل: (فلما سمعت مكرهن)، دل ذلك على أنها كانت معهن في مجلس واحد، فلا معنى حينئذ لقوله (فأرسلت إليهن)، إذن، حققت الباء الإنسجام بين اللفظ والمعنى.

وكشفت الإضافة مقصداً أسلوبياً، يتمثل بتقرير نزاهة يوسف، في قوله تعالى: - (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) [يوسف: ٢٦]، فكون الشاهد من أهلها، أدل على نزاهة يوسف -عليه السلام-

<sup>(١)</sup> الألويسي: روح المعاني، ٤١٥/١٢.

<sup>(٢)</sup> بنظر الآيات (٣٣)، (٥٠)، أيضاً.

<sup>(٣)</sup> الزمخشري: الكشاف، ٤٣٦/٢.

وتقرير براءته، فإن شهادته حجة قاطعة. ولا يمكن له أن يقف ضدها، بل قدّم احتمال صدقها، كما يظهر في قوله تعالى :- (فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [يوسف: ٢٦] على احتمال صدق يوسف.

وتوحي الإضافة بتحقيق المضاف، لاختصاص المضاف إليه بالكفر، من ذلك قوله تعالى :- (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَدِيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) [يوسف: ٣٧]، فإضافة (الملة) إلى قوم متصفين بالكفر، وعدم الإيمان بالله، فيها تحقيق لهذه الملة.

وحققت الإضافة دلالة الاستحقاق في قوله تعالى :- (وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْنِي لِنَفْسِي) [يوسف: ٥٤]، فقد أضاف الملك يوسف إلى نفسه، وكأنه المستحق الوحيد له، ومثلها قوله تعالى :- (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [يوسف: ٦٩]، فالإضافة في الكلمات (أخاه) و(أخوك)، دالة على استحقاق يوسف لإخوة بنيامين دون غيره، وأوحت كذلك إلى دلالة الاستعطاف، وأن يوسف ليس بغريب أو أجنبي من بنيامين فمن حقه أن يحنو عليه.

ويستخدم القرآن الإضافة، في معرض التهيب لهؤلاء القوم، الذين لا يأمنون عذاب الله، في قوله تعالى: (أَفَأْمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ) [يوسف: ١٠٧] فإضافة العذاب إلى لفظ الجلالة (الله)، فيه مزيد من التهيب والتخويف.

يتبين مما سبق أن القرآن، يستخدم أسلوب التعريف بالإضافة في قصة يوسف لمقاصد أسلوبية متنوعة، تسهم في تبيان المعاني المتوخاة من القصة بما يتلاءم والهدف الديني العام فيها.

## المبحث الرابع - أسلوب التقديم والتأخير :

نصّ النحاة على ترتيب الجملة النمطية في النحو العربي، وعلى الرغم من أنّ الآراء النحوية أباحت تحريك هذا النمط في بعض أجزائه، إلاّ أنّهم حصرُوا الهدف من وراء ذلك العدول في ترتيب الجملة على الاهتمام، والعناية بشأن المقدم. يقول صاحب "الكتاب" وهو يتحدث عن الفاعل والمفعول: "وكانهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهتمانهم ويعنيانهم" (١).

أما البلاغاء، فلم آراء أرحب في الغايات التي يحققها الإنزياح في الجملة النمطية، فقد أشار كثير من البلاغيين إلى المقاصد الجمالية والأسلوبية لهذا الإنزياح (٢).

وقد فصل عبد القاهر الجرجاني القول في التقديم والتأخير وضرب الأمثلة عليه، وأبرز الأغراض البيانية، بعد تحليل بعض الشواهد القرآنية، ومما قاله في مقدمة حديثه عن التقديم والتأخير: "هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتّر لك عن بدیعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان" (٣).

وفهم من كلام عبد القاهر، أن التقديم والتأخير في نظم الكلام، هو تبادل في مواقع الكلمات، وإحلال كلمة محل أخرى، لتؤدي غرضاً بلاغياً، ما كانت لتؤدي لو أنها بقيت في مكانها الأصلي. وهذا هو الذي حمل البلاغيين على الاهتمام بالتقديم والتأخير؛ لأن جريانه جاء على خلاف المعتاد في تأليف الكلام.

والتقديم والتأخير متلازمان؛ بمعنى أن كل تقديم يستلزم تأخيراً، وكل تأخير يبنى عليه تقديم، فتقديم المسند -مثلاً- يقتضي بالضرورة تأخير المسند إليه، وهكذا.....

وشكل التقديم والتأخير في سورة يوسف ظاهرة أسلوبية، تلفت نظر الدارس إليها، وتحتة على سير أغوارها، واستكشاف آفاقها، وقد حققت هذه الظاهرة، معاني ثنائية، باعتبار قرأتها اللغوية والسياقية، من ذلك تقديم المسند إليه. وقد أشار عبد القاهر إلى تقديم المسند إليه بقوله: "ومما يحسن ذلك فيه ويكثر، الوعد والضمان، كقول الرجل: أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك أنّ من شأن من تعدّه وتضمن له، أن يعترضه الشك في تمام الوعد، وفي الوفاء به،

(١) سيوبه: الكتاب، المطبعة الكبري الأميرية - بالقاهرة، ١٣١٦هـ - ١٥/١٠.

(٢) بنظر: دلائل الإعجاز، ص ١٠٦ وما بعدها، والفروبي: شرح التلخيص في علوم البلاغة، ص ٣٩ وما بعدها، ص ٦٤-٧٠.

(٣) دلائل الإعجاز، ص ١٠٦.



فهو من أحوج شيء إلى التأكيد<sup>(١)</sup>. وقد تحقق ذلك في قوله عز وجل: - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا نَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) [يوسف: ٢-٣]، فالآيتان تمثلان جزءاً من افتتاحية السورة، هادفة بذلك إلى التأثير في نفسية القارئ، نافية عنه الشك والاعتراض، وذلك بالإشارة إلى أن القصة التي سيتلوها قصة حسنة، صادقة المنطق، تخلو عناصرها من الغموض والشكوك، وهي بذلك تعرض بالقصة الجاهلية التي كان يرويها بعضهم، كالنضر بن الحارث، عن الفرس والروم، وقد أفاد تقديم المسند إليه (نحن نقص) غرض الإختصاص، وإلى هذا أشار الطاهر بن عاشور بقوله: "وتقديم الضمير على الخبر الفعلي يفيد الإختصاص"، أي نحن نقص لا غيرنا، رداً على من يطعن من المشركين في القرآن بقولهم: "إنما يعلمه بشر"<sup>(٢)</sup>. وحين يقول القرآن هذا، لا يدع مجالاً للشك في القول. فما على المخاطب (المتلقي) إلا الاستماع لما سيأتي به القرآن، وحتى يعظم الخبر يستخدم ضمير المتكلم الجمعي (نحن).

ومن النصوص التي تفيد الإختصاص قوله تعالى في خبر رؤيا الملك (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) [يوسف: ٤٥]، فتصدير الجملة الاسمية بالمسند إليه (أنا)، يفيد الإختصاص والمغزى أن صاحب يوسف قد علم علم اليقين، أنهم مرسلوه لا محالة بعد عجز الملأ من تأويل الرؤيا. كما سبق أن جرب صدق يوسف. في تأويل رؤياه، هو وصاحبه، فرأى أنها فرصة لإظهار قصة هذا السجين -يوسف-، وفي هذا تحريك لأحداث القصة، وقوله (أنا)، يعني: أنا لا غيري من سيخبركم الخبر الصادق، وقد حسن هذا التقديم؛ "لأن فيه معنى الوعد والضمان، وذلك في شأن من تعده، وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد، وفي الوفاء به"<sup>(٣)</sup>، ولا بد من التقديم لتأكيد هذا الوعد.

وجاء تقديم المسند إليه، على لسان امرأة العزيز في قوله تعالى (الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) [يوسف: ٥١].

وقد جاء هذا النص خاتمةً لنصوص متشابهة، تدور كلها حول التهمة التي ألصقت بسيدنا يوسف -عليه السلام- كقوله تعالى في بداية قصة المرادة: - (قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالَ هِيَ رَاوِدْتَنِي عَنْ نَفْسِي) [يوسف: ٢٥-٢٦] وقوله عليه السلام: (هي راوِدْتَنِي) بتقديم الضمير على خبره، يعني أن امرأة العزيز، وحدها، هي صاحبة الأمر في ذلك، ولم يكن أحدٌ معها، عندما خططت لفعلتها غير أن النبي لم يكن معروفاً بعد، وقد لمع بعد رؤيا الملك، التي أَرَادَهَا اللهُ فرجاً له، ثم إن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، قد أُنكِرْنَ أمرَ

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٤.

(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٠٣/١٢.

(٣) دلائل الإعجاز، ص ١٣٤.

المرأودة، فلم يبقَ إلا شخص واحد، يوجه إليه الاتهام، وهي امرأة العزيز، فقالت : (أنا راودته) وهي بذلك تعترف بجريمتها، فقول يوسف (هي راودتني)، واعترافها بالقول (أنا راودته)، جاء بعد مسافة زمنية طويلة.

وقوله عليه السلام : (هي راودتني)، "هو مما يستغرب ويثير الدهشة من الأخبار، إذ وقعت المرأودة من امرأة العزيز، ذات المنزلة العالية، والنفوس تستبعد وقوع المرأودة منها لفتاها، لذا جاء التوكيد (هي راودتني)، تقريراً للمعنى، ودفعاً لهذه الغرابة"<sup>(١)</sup>.

وإيثار ضمير الغيبة مع أن المرأة حاضرة، تادباً منه عليه السلام مع زوجها العزيز، الذي أكرم مثواه.

وبالنظر إلى قولها (الآن حصحص الحق) الذي معناه "ثبت واستقر"<sup>(٢)</sup> ثم ما يؤديه جرس أصواتها، يتبين أن الحاء الحلقية تحسج الحلق لتكرارها ثم صوت الصاد المطبق المتكرر، ألقى ظلاله على معنى الثبات والاستقرار. وهذا ما يؤكد الصلة بين الصوت ومعناه في التعبير عن الدلالة المرموزة، وهي مع تقديم الضمير (أنا)، واسمية الجملة الخبرية، الدالة على الثبات كلها تتضافر للتدليل على نزاهة يوسف -عليه السلام- وبراءته.

وخذ قوله تعالى على لسان يوسف :- (أَلَلْتَرُونَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) [يوسف: ٥٩]، تجد أن تقديم المسند إليه (أنا) للتوكيد والاهتمام بالجو الذي جاء فيه هذا القول، على لسان النبي الكريم، عندما طلب من إخوته، إحضار أخيه -بنيامين - من أبيهم، (اتْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ) [يوسف: ٥٩] فهو يؤكد لهم جدية مطلبه، ولهذا لجأ إلى تقديم الضمير (أنا)، للتدليل على قدرته في تنفيذ تهديده (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) [يوسف: ٦٠]، ومقصوده من وراء ذلك التقديم إضافة إلى تقوية الحكم وتوكيده، ترغيب الإخوة للإتيان بأخيهم .

ويأتي تقديم المسند إليه، على لسان يوسف، في قوله تعالى :- (أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) [يوسف: ١٠١]، ليفيد دلالة الاهتمام والاختصاص، أي: أنت، وحدك وليّ في الدارين. فهو الذي نجّاه من الويلات خلال رحلة حياته، ابتداءً بكيد الإخوة والجب، ثم العبودية والمرأودة، والسجن ظلماً، وغيرها. فتقديمه لضمير المخاطب يوحى بالاعتراف بهذا الفضل الرباني، الذي لا يستطيع أحد أن ينجيه مما حصل له إلا الله تعالى.

(١) فوود، بسيوي: من بلاغة النظم القرآني، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط(١)، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ٩٦.

(٢) الزمخشري: الكشاف، ٤٥١/٢.

ويكثر في سورة يوسف ظاهرة تقديم المتعلقات؛ كالظرف والجار والمجرور، والمفعول، وليس ذلك إلا لفائدة بلاغية، يجد الدارس من ورائها، مقاصد أسلوبية، تؤكد الإعجاز البلاغي لها، ومدى تطابق النظم، ونفسية المتكلم والمتلقي على السواء.

وأشار القزويني إلى أن تقديم معمولات الفعل، تأتي لأغراض، منها " التخصيص، وهو لازم للتقديم غالباً ..... ويفيد المعنى في جميع ما ذكر وراء التخصيص شيئاً آخر، وهو الاهتمام بالمقدم"<sup>(١)</sup>.

ونجد دلالة الاختصاص التي يفيدها الجار والمجرور، جلية في قوله عز وجل: (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ) [يوسف: ٤]، فتقديم الجار والمجرور (لي) لدلالة الاختصاص بالمقدم، وهو يوسف المعنى بالرؤيا أصلاً، والمعنى: أن الكواكب الأحد عشر، والشمس والقمر، سجدت ليوسف وحده دون غيره، كما أن تقديم المتعلق فيه رعاية للفاصلة القرآنية وهو المحافظة على نهاية الآي، المختومة بصوت النون. وأشار صاحب الطراز إلى أن تقديم الظرف يكون لدواع منها رعاية الفاصلة القرآنية فهو يقول: " وثانيهما أن يكون تقديمه من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي"<sup>(٢)</sup>.

من ذلك -أيضاً- ما جاء على لسان الإخوة في قوله تعالى (قَالُوا يَا أَبَاتَنَا مَا لَكَ لَدَاتِنَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [يوسف: ١١، ١٢]، فتقديم الجار والمجرور (له) العائد إلى يوسف -عليه السلام-؛ للاهتمام بشأنه، واختصاص الأخوة بنصحه والمحافظة عليه، وكأنهم جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح سواه. وهذا التقديم يهدفون من ورائه إلى الكيد بيوسف، وهو الحيلة التي يمكن أن يقنعوا أباهم من خلالها، في تحصيل مقصدهم ولو أن ترتيب الآية جاء (وإنا لناصحون له) - مثلاً- لتأخر الاهتمام بالشخص المقصود، ولما كان ذلك مدعاة لتصديقهم.

كما يحمل التقديم للجار والمجرور (له)، دلالة جمالية تتعلق بالنسق الإيقاعي للسورة بشكل عام، وهو رعاية فاصلة النون.

وهكذا نرى القرآن ينحى باللفظ منحى يتسق مع أحوال النفس وهذا هو معنى البلاغة في أسمى معانيها، وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

<sup>(١)</sup> القزويني: شرح التلخيص في علوم البلاغة، ص ٧١.

<sup>(٢)</sup> العلوي: الطراز، ٧١/٢.

أما تقديم النعمة على المتعلق الجار والمجرور في قوله تعالى: (وَيُنِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ) [يوسف: ٦] اقتضاه النظم العالي؛ إذ إن نعمة الله هي المقصودة في هذا التقديم، ولولاها لم تكن لتذكر قصة يوسف في القرآن الكريم.

ويكشف لنا تقديم المتعلق (عنه) الدال على الإختصاص عن نفسية الأب الحاني على ابنه في قوله تعالى (قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاب أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) [يوسف: ١٣] فقد ذكر يعقوب -عليه السلام- المخاطر التي يمكن لطفل صغير أن يتعرض لها في الرحلة، مع فرط حبه له، فقدّم حزنه على فراقه كما أنّ تقديم المتعلق (عنه)، أفاد اختصاص الأخوة بالغفلة عن يوسف، والتعبير بالجملة الإسمية، دالّ على ثبوت هذه الغفلة من جانب الإخوة تجاه أخيهم، كيف لا، والأب يُعرف في قرارة نفسه الحسد الشديد، والكره الأعمى ليوسف من هؤلاء الإخوة، ودلّ على ذلك قوله تعالى على لسانه في معرض تحذيره ليوسف من قص رؤياه عليهم، كما يظهر في قوله تعالى: (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) [يوسف: ٥]، ومعناه: فيكيدوا لك خصوصاً كيداً عظيماً، وأكدّ الجملة بالمصدر (كيداً) لتخويف يوسف من قص هذه الرؤيا على الإخوة.

ويقف الدارس وقفة تأمل في دواعي تقديم الظرف، في قوله تعالى: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) [يوسف: ٢٠]، إن فاتحة السورة توحى بعظمة هذا النبي، وعلو شأنه في المستقبل، فإذا به يلقى في الجب، ثم غدا عبداً يباع بثمن بخص. هذه المفارقة العجيبة هي التي اقتضت تقديم الظرف (فيه)، ولو علم أصحاب السيارة، أن هذا الغلام سوف يكون نبياً وعزيزاً لمصر، ما زهدوا فيه. فتقديم المجرور على عامله؛ "للتبويه بشأن المزهود فيه، وللتبويه على ضعف توسمهم، وبصارتهم مع الرعاية على الفاصلة"<sup>(١)</sup>.

وشبيه بذلك قوله تعالى: (قَالُوا سَتَرْنَاؤُا عَنْهُ آبَاءَهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) [يوسف: ٦١]، فقد قدّم الإخوة الجار والمجرور (عنه) العائد على (بنيامين) ليبدل على تعظيم هذا الأمر، فليس يسيراً أن يأخذوا أخاهم (بنيامين)، وليس يعقوب -عليه السلام- ساذجاً لكي يأمنهم عليه، فقد جربهم بشأن يوسف، الذي ادّعوا فيه أن الذئب قد أكله. فتقديم الظرف؛ "للاهتمام والتبويه على عزة المطلب وصعوبة مناله"<sup>(٢)</sup>، ولهذا جاء على لسانهم تقديم منع الكيل على طلب إرسال بنيامين معهم، مع أن هذا المنع، سيكون في المستقبل، إذا لم يحضروا معهم أخاهم، كما ورد في قوله تعالى: (يَا أَبَتَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نُّكَتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [يوسف: ٦٣]، فتقديم الظرف (معنا)، والجار

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٤٤/١٢.

(٢) الألويسي: روح المعاني، ١١/١٣.

والمجرور (له)، فيه تصويرٌ لنفوس الإخوة التي تتلظى بين نارين، نار عدم القدرة على العودة إلى مصر إلا بأخيهم، للحصول على الطعام، ونار نبش الماضي بطلب أخيهم من والدهم.

ويفيد تقديم الظرف الاهتمام، في قوله تعالى: (وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ) [يوسف: ٣٦]، فتقديم المتعلق (معه) للاعتناء بشأن يوسف؛ لأنه مداز الحديث، ولو أجزّ الظرف، فقال: - (وَدَخَلَ السَّجْنَ مَعَهُ فَتَيَانٍ)، لم يفد الاعتناء بشأن الرؤيا التي سوف يفسرها لهما النبي الكريم يوسف، والتي كانت مقدمة للإفراج عنه، وتقريبه من الملك، وتقديم المفعول به (السجن) على المسند إليه (فتيان)، أفاد التشويق للمتأخر، ليتمكن في النفس حين وروده عليها فضل تمكن.

ويكشف القرآن - عن طريق التقديم - للدارس، نفسية هؤلاء الإخوة، الذين فقدوا كل أمل بحياة يوسف، ولم يعودوا يفكرون به. البتة، وهذا ظاهرٌ في قوله تعالى (فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) [يوسف: ٥٨]، فتقديم المتعلق (له) يفيد الاختصاص؛ لأن إنكارهم ليوسف كان ثابتاً وخاصاً، ولم يكن موجهاً لغيره من الناس، وفي هذا اهتمام بشأنه - عليه السلام - وتعريضٌ بالإخوة الذين خفي عليهم أخوهم صاحب الخلق الجميل والخلق الكريم، لم يكن ليخفي على أحد فكيف يخفي عليهم؟! قال الزمخشري "لاعتقادهم أنه قد هلك، ولقلة فكرهم فيه، واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقه عليها طريحاً في البئر ...." <sup>(١)</sup>. كما دل على أنه - عليه السلام - عرفهم بمجرد دخولهم عليه، بلا مهلة بدليل حرف (الفاء) الذي يفيد الترتيب والتعقيب.

كما يكشف تقديم (المتعلق) عن نفسية النبي الكريم، ذي العاطفة الرقيقة التي تحنو على الأخ، ويظهر ذلك في قوله تعالى: (أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) [يوسف: ٦٩]، فتقديم (إليه) فيه الاعتناء والاهتمام، والحنو لأخيه، وهذه الدلالات لم تكن لتتحقق لو أجزّ الجار والمجرور.

ويأتي تقديم الظرف في نهاية السورة ليكشف قوة العقيدة في قلب يعقوب - عليه السلام - ومدى تعلقه بخالقه عز وجل، وهذا ما يبرز في قوله تعالى: (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) [يوسف: ٦٧] فقد أفاد تقديم الجار والمجرور (عليه) اختصاص التوكل وقصره على من له القوة والحول، في الحفظ والرعاية.

فلا يكون التوكل إلا على من اكتملت له صفات الكمال، وإلى ذلك أشار أبو السعود في تفسيره بالقول: "قدم الصلة (عليه) للاختصاص وقصر التوكل المذكور على الله، دون ما عداه، لا

<sup>(١)</sup> الزمخشري: الكشاف، ٤٥٦/٢.

على سبيل الاشتراك كما قدّم توكله -عليه السلام - (عليه توكلت) لإلقاء سببته فعله، لكونه نبيّاً لفعل غيره من المقتدين به (أن يكون قدوة لغيره) <sup>(١)</sup>.

ومن أساليب التقديم البلاغية تقديم ألفاظ العموم، وذلك من أجل الدلالة على مقصد الشمول لجميع الأفراد والأجزاء، وقد أشار الجرجاني إلى ذلك بالقول: ".... وتعرف ذلك بأن تنظر إلى (كل) في الإثبات، وتتعرف فائدته فيه. وإذا نظرت وجدته قد اجتلب لأن يفيد الشمول في الفعل الذي تسنّده إلى الجملة، أو توقعه لها ...." <sup>(٢)</sup>.

ويظهر معنى الشمول في قوله تعالى: - (وَأَتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا) [يوسف: ٣١]، والمغزى أن امرأة العزيز أرادت أن تؤكد لنساء المدينة، أن الأمر ليس كما يتصورن، فهن لا يعرّفن صورة هذا الشاب الوسيم، فأرادت أن تَمْتَحِنَهُنَّ وهي متأكدة تماماً من نجاحها، وقوله تعالى (كُلُّ وَاحِدَةٍ) أفاد الشمول لكل امرأة، وهذا دالٌّ على ثقتها بنفسها، فتقديم لفظ (كل) يختلف عن تأخيرها، فيما لو قالت: (أتتهن).

وشبيه بذلك -أيضاً- قوله تعالى: (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) [يوسف: ١١١]. فقد أفاد تقديم لفظ (كل) أن الشيء مهما كبر أو صغر مفصل في هذا القرآن العظيم، وإن لم يطلع عليه الناس، لما يكتشفوه بعد. وهذا المعنى الشمولي لا يتأتى لو قيل: - (وتفصيل الأشياء كلها)؛ لما لا تحقّقه من تفصيل الشيء الواحد.

وثمة نوع آخر من التقديم برز في سورة يوسف، هو ما يسميه البلاغيون (ما قدّم والمعنى عليه)، أو بعبارة أخرى (التقديم بالمعنى) ومقتضياته كثيرة <sup>(٣)</sup>، من ذلك تقديم الشمس على القمر، في قوله تعالى: (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) [يوسف: ٤] وذلك؛ لأن ضوء القمر مستمدٌ من الشمس.

أما تقديم الكواكب وتأخير ذكر الشمس والقمر؛ "لاختصاصهما بالفضل، واستبدادهما بالمزية على غيرها من الطوائع" <sup>(٤)</sup> وقال أبو حيان: - "والذي يظهر أن التأخير إنما هو من باب الترقى من الأدنى إلى الأعلى، ولم يقع الترقى في الشمس والقمر، جزياً على ما استقر في القرآن، من أنه إذا اجتمعاً قدمت عليه، وقدمت على القمر، لسطوع نورها، وكبر حجمها، وغرابة سنيها، واستمداد نوره منها، وعلو مكانها" <sup>(٥)</sup>.

<sup>(١)</sup> أبو السعود: إرشاد العقل السليم ١٦٨/٣.

<sup>(٢)</sup> الجرجاني: دلائل الإعجاز، ٢٧٨، وينظر الصفحات ٢٧٩-٢٨٠.

<sup>(٣)</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٢٣٨/٣-٢٧٤.

<sup>(٤)</sup> الرميشري: الكشف، ٤١٨/٢.

<sup>(٥)</sup> الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ٢٨١/٥.

ومن دواعي التقديم المعنوي، السبق بالزمان والإيجاد، مضافاً إليه غرض التشريف، في قوله تعالى: (كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) [يوسف: ٦] وقوله تعالى (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) [يوسف: ٣٨].

وجاء تقديم (الحكم) على (العلم) في قوله تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) [يوسف: ٢٢]، فالدارس يرى أنه من الطبيعي تقديم (العلم) أولاً، ثم يتبعه (الحكم)، إذ لا يتم الحكم إلا بحصول العلم أولاً، غير أن القرآن يقدم الحكم هنا؛ لأنه مدار النفع، فكم من عالم أخطأ فكان غير حكيم، " والمراد بلفظ (حكماً) الحكمة العملية، والمراد من (العلم) الحكمة النظرية، وإنما قدّم الحكمة العملية هنا على النظرية؛ لأن أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية، ثم يترقون منها إلى الحكمة النظرية، .....، وطريقة يوسف - عليه السلام - هي الحكمة العملية لأنه صبر على البلاء والمحنة، ففتح الله عليه أبواب المكاشفات، ولهذا السبب قال: (آتيناها حكماً وعلماً) <sup>(١)</sup>. فالحكمة هي مجال النفع من العلم، وإذا انتفتت، لم يبق للعلم مضمون ومعنى وفائدة.

ويبرز تساؤل، ما اللفظة الأسلوبية في تقديم (العلم) على (الحكمة) في قوله تعالى: (وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [يوسف: ٦]، وقوله تعالى في نهاية السورة (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [يوسف: ١٠] فتقديم الوصف (عليم) على الوصف (حكيم)؛ لأن المعنى يتطلب ذلك، فمن الظاهر أن مقتضيات الحكمة تستوجب أن يسبقها العلم، فحكمة الله تعالى في اجتباء يوسف وتعليمه، هي أمرٌ غيبي لا يعرفه أحد، فقدّم علم الله المطلق ثم ذكر الحكمة من هذا العلم الغيبي. فالحال داعية للعلم أولاً وللحكمة ثانياً.

ومن أسرار التقديم المعنوي ما يكون للترتيب في الوجود، مثل تقديم (المرض) على (الهلاك)، في قوله تعالى: - (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونَ تَذَكَّرْ يَٰيُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) [يوسف: ٨٥]، والسبب في هذا التقديم أن " المرض هو: شدة المرض المشفى على الهلاك <sup>(٢)</sup>، فهو سابق في الوجود على الهلاك؛ لأنه مفضي إليه بالضرورة.

وقد يكون التقديم المعنوي بسبب الكثرة، كما في قوله تعالى: - (وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) [يوسف: ١٠٣]، فإن أكثر الناس تكون غير مؤمنة، وجملة (ولو حرصت)

<sup>(١)</sup> الرازي، التفسير الكبير، ١١١/١٨.

<sup>(٢)</sup> الزمخشري: الكشاف، ٤٧٠/٢.

إحتراس، أي: "ولو نهالكت - يا محمد - على إيمانهم - فلن يؤمنوا - لتصميمهم على الكفر، وعنادهم على ما تحدثهم به"<sup>(١)</sup>.

وفي معرض تأويل يوسف - عليه السلام - لرؤيا الفتين في قوله تعالى: ( يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَخَذَكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ) [يوسف: ٤١] فقدّم القرآن الفتى الذي سوف ينجو، على الذي سيصلب؛ لأنه مدار القصة في المستقبل تعتمد على نجاة الساقى؛ لأنه سيكون سبباً في تفسير رؤيا الملك، وخروج يوسف - عليه السلام -؛ من السجن، ولمّ شمله مع أهله، وتحقيق رؤياه التي رآها وهو طفل صغير.

وفي خطاب يوسف - عليه السلام - لصاحبيه في السجن، جاء قوله تعالى ( إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَـئِي يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ ) [يوسف: ٣٧] وقوله تعالى ( وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ) [يوسف: ٣٨]، فقدّم يوسف - عليه السلام - الترك في الآية الأولى على الاتباع في الآية الثانية؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، أي يتخلى المرء عن عقائد الشرك أولاً، ثم يتحلى بالإيمان.

ومن جماليات التقديم المعنوي؛ الأدب في الكلام، في قوله تعالى على لسان يوسف: ( رَبِّ أَفَدَأْتِنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ .... تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ) [يوسف: ١٠١] فقدّم يوسف الثناء بنعم الله تعالى، على الدعاء، وهذا من الأدب النبوي الذي يمنحه الله تعالى عباده المصطفين الأخيار.

ومن التقديم المعنوي، العطف على الحبيب، كما ورد على لسان امرأة العزيز في قوله تعالى: ( مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) [يوسف: ٢٥]، إن حبها الشديد ليوسف - عليه السلام - حملها على تقديم ذكر السجن، وتأخير ذكر العذاب؛ " لأن المحب لا يسعى في إيلاج المحبوب، وأيضاً إنها لم تذكر أن يوسف - عليه السلام - يجب أن يقابل بأحد هذين الأمرين؛ بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً، صوتاً للمحبوب عن الذكر بالشر والألم"<sup>(٢)</sup>.

ومن صور التقديم في سورة يوسف، تقديم الجملة، منه قوله تعالى على لسان يوسف: ( قَالَ ارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْنَاهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ) [يوسف: ٥٠]، فأخر الخروج من السجن بعد إثبات براءته أمام الملك، وإعلامه بأنه سجن ظلماً.

وشبيه بما سبق قوله تعالى: ( فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ) [يوسف: ٧٦]، فقدّم تفتيش أوعية الإخوة، على وعاء أخيه - بنيامين، نفياً للتهمة، وتمكيناً للحيلة، حتى ينجح في أخذ أخيه.

(١) المصدر السابق، ٤٧٩/٢.

(٢) الألويسي: روح المعاني، ٤١٠/١٢ - ٤١٠.



ولعله يظهر مما قدمناه أن أسلوب التقديم والتأخير، في سورة يوسف حقق مقاصد أسلوبية رفيعة، برز منها مقصد الاختصاص كما بدت ظاهرة تقديم المتعلقات "الجار والمجرور والظرف" بشكل بارز .

## المبحث الخامس - أسلوب الحذف:

الحذف من شجاعة العربية، كما يقول ابن جني<sup>(١)</sup>؛ لأن وراءه أسراراً ومعاني يدركها الخبير بأساليب الكلام، البصير بطرق القول. فالمتكلم يحذف جزءاً من أجزاء كلامه، ولا يختل المعنى بهذا الحذف، بل يزداد حسناً، وتكثر فوائده ومزاياه.

والحذف نوعٌ من الإيجاز، بل إن مدار الإيجاز قائمٌ على الحذف كما يرى صاحب الطراز؛ "لأن موضوع الحذف على الاختصار، وذلك إنما يكون بحذف ما لا يخل بالمعنى، ولا ينقص من البلاغة، بل أقول: لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن علو بلاغته، لصار إلى شيءٍ مشتركٍ، مُستَرَدَلٍ"<sup>(٢)</sup>.

وافتح عبد القاهر الجرجاني باب الحذف بقوله: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد إلى الإفادة، وتجذبك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأنتم ما تكون بياناً إذا لم تُبين"<sup>(٣)</sup>.

والأصل في الكلام أن يذكر كله؛ لأن الجملة فيه قائمة على الإسناد، والإسناد مؤسس على المسند والمسند إليه، فالأصل ذكرهما وعدم حذفهما، ما دام المعنى لا يتم إلا بهما. فالذكر "في موطنه بليغٌ مطابق، ....، يحقق قيمة معنوية في الأسلوب، وقد يكون الكلام مع الذكر مبنياً على غاية الإيجاز، لأن البلاغة مراعاة المقامات والأحوال"<sup>(٤)</sup>.

إذن البلاغة ليست مقصورة على الحذف وحده، بل يعثر الدارس - سورة يوسف - على أمثلة يرى أن الذكر فيها أظهر للمعنى من الحذف، من ذلك ذكر الحرف في قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ) [يوسف: ٦٥]. فذكر الباء في قوله (نبغي)، ولم يقل: (نبيع)؛ لأن المقام هنا مقام حث، على النظر والتأمل، والتفكير فيما يطلبون من يعقوب - عليه السلام - من إرسال بنيامين معهم، وهذا يحتاج إلى تروٍّ وتأنٍّ، فلا مجال هنا للحذف؛ لأن السياق اقتضى الذكر، لتصوير التأنّي والتروي، اللذين يُحتاج إليهما في مقام التأمل، فذكر الفعل كاملاً، ينسجم مع بغية الإخوة، وهدفهم في الحصول على الطعام عن طريق أخيهم، فهو السبب في ذلك.

(١) ابن جني: الخصائص، نج. محمد علي الحجار، دار الكتب العربي - بيروت - لبنان، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، ج ٢/٣٦٠.

(٢) العلوي: الطراز، ٩٢/٢.

(٣) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٤٦.

(٤) أبو موسى، محمد: خصائص التراكيب، مكتبة وهبة، دار الضامن، ط ٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ١٣٥.

وقد يتطلب الموقف حذف الياء في الفعل (نبغي) كما في قوله تعالى في سورة الكهف :  
(قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ  
سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا، قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) [الكهف: ٦٣-٦٤].

فالسباق يقتضي حذف (الياء) في قوله (نبغ)، والسر في ذلك لأن؛ الآيتين تتحدثان عن  
موسى -عليه السلام-، عندما أسرع بالعودة إلى الصخرة، ليبحث عن الحوت الذي أعده لغدائه مع  
العبد الصالح، فجاء النظم القرآني، ليصور سرعة ارتداد موسى وفتاه ورجوعهما إلى الصخرة، إذ  
دلت (الياء) في قوله تعالى (فارتدا) على سرعة ارتداد موسى، وهذه السرعة لا تسمح بذكر  
المحذوف (الياء). والله أعلم.

ومن البلاغة المتصلة بالذكر قوله تعالى على لسان يوسف (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ  
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) [يوسف: ٣٨]. فقد ذكر يوسف -عليه السلام- آباءه إبراهيم واسحاق ويعقوب،  
ولم يقل : "واتبعت ملة آبائي"، بل ذكر الآباء صراحة؛ لأن النظم العالي يقتضي ذلك. " وهو  
ليريهما أنه من بيت النبوة، بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه، بما ذكر من إخباره في الغيوب،  
ليقوى رغبتهما في الاستماع إليه <sup>(١)</sup>.

وثمة سر آخر وراء الذكر، وهو أن آباءه لم يكونوا كلهم مؤمنين وأنبياء، فخص من  
ذكرهم، لأنهم مختصون بالإيمان والنبوة <sup>(٢)</sup>.

ومن بلاغة الذكر أيضاً قوله تعالى : (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ  
وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ  
بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) [يوسف: ٩-١٠] فذكر الإخوة الوجه ولم يقولوا : " يخل لكم أبوكم "  
، وإيثار ذكره لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأن من أقبل على الشيء يكون بوجهه . ويجوز أن  
يراد بالوجه الذات كما قال تعالى : (وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ) [الرحمن: ٢٧].

كذلك قوله تعالى : (لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ) ولم يقل : " لا تقتلوه " لدلالة ما قبله، وذكر يوسف؛  
أبلغ؛ "استجاباً لشفتهم عليه، واستعظماً لقتله" <sup>(٣)</sup>.

وتجد ذكر (لعل) أبلغ من حذفها في قوله تعالى : (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)  
[يوسف: ٤٦] فلم يقل : "لعلِّي أرجع إلى الناس فيعلموا،" فالذكر يعمق دلالة الرجاء؛ " لأنه ليس

<sup>(١)</sup> الزمخشري، الكشاف، ٤٤٣/٢.

<sup>(٢)</sup> فولد إبراهيم (أزر) كان مشركاً.

<sup>(٣)</sup> نوفل، أحمد : سورة يوسف دراسة تحليلية ، ٣٠٥.

على يقين من الرجوع، وربما اخترم دونه، ولا من علمهم، وربما لم يعلموا<sup>(١)</sup>. ثم ما يحقّقه الذكر من رعاية الفاصلة، وهي حرف النون.

كذلك نجد ذكر الضمير يحقق دلالة الاختصاص التي يتطلبها المقام، كما في قوله تعالى: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) [يوسف: ٣٧]. فلم يقل: " وهم بالآخرة كافرون"، لأنه لا يحقق الدلالة المقصودة، وهي كما يقول الزمخشري: "إنهم خصوصاً كافرون بالآخرة، وأن غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها، وهم الذين على ملة إبراهيم، ولتوكيد كفرهم بالجزاء، جاء بضمير الفصل"<sup>(٢)</sup>.

ويحسن الذكر في مقامات التضرع إلى الله - عز وجل -، إذ يتلذذ الداعي بذكر لفظ الجلالة، ويدل على عمق العلاقة الروحية، كما في قوله تعالى على لسان نبيه يعقوب: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّنُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْسَرُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَدَيِّنُنَا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ) [يوسف: ٨٦-٨٧]. إذ يمكن أن يحذف لفظ الجلالة ولا يذكره صريحاً؛ لدلالة ما قبله، كأن يقول مثلاً: "وأعلم منه ما لا تعلمون"، "إنه لا يبأس من روحه"، لكن الذكر أبلغ؛ لأن المقام مقام تضرع وشكوى إلى الله، واعتصام بحبل الله، واستحضار له عز وجل، في وجدان يعقوب - عليه السلام - وقلبه.

غير أن الحذف في سورة يوسف - عليه السلام - شكل ظاهرة أسلوبية بارزة يكمن وراءها أسرار بلاغية، ومعانٍ ثمانية، باعتبار سياقها النظمي.

وقد تنوع أسلوب الحذف في سورة يوسف، فنرى حذف الحرف، والمسند والمسند إليه، وحذف المتعلقات، والجملة. وقد تناول البلغاء أسلوب الحذف بأنواعه، وما يخرج إليه من أغراض بلاغية<sup>(٣)</sup>.

فمن أمثلة حذف الحرف قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) [يوسف: ٣٣]، فالشاهد في الآية الكريمة حذف حرف النداء في نداء الرب عز وجل، الذي يوحى بالقرب الشعوري، بين يوسف وربه، فهو أقرب إليه من حبل الوريد، ويعلل الزركشي هذه الظاهرة الأسلوبية، في نداء الرب سبحانه بقوله: "وحكمة ذلك دلالتة على التعظيم والتتزيه؛ لأن النداء يتشرب معنى الأمر؛ لأنك إذا قلت: (يا زيد) فمعناه: أدعوك يا زيد، فحذفت (يا) من نداء الرب

(١) الزمخشري: الكشاف، ٤٤٩/٢.

(٢) السابق، ٤٤٣/٢.

(٣) للإطلاع على أسلوب الحذف، وأغراضه البلاغية، ينظر: دلائل الإعجاز ص ١٤٦-١٧٢. و القزويني: شرح التلخيص، ص ٢٨، ٥٤، ٦٨-٦٩. و الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١٠٢/٣-٢٣٢.

ليزول معنى الأمر، ويتمخض التعظيم والإجلال<sup>(١)</sup> وحذف (الياء) في لفظ (رب) للتخفيف، والتلطف على تحقيق المدعو به، ولتوفر العناية إلى ما بعده.

كما حذف حرف النداء (الياء) في نداء يوسف -عليه السلام- في قوله تعالى: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هَذَا) [يوسف: ٢٩] وتقديره: يا يوسف، ووراء هذا الحذف تكمن معاني التقريب والتلطيف ليوسف؛ فقد ثبتت براءته، كما أن ملاطفة يوسف وراءها مقصد أسلوبى آخر مركز في أحشاء العزيز، وكأنه يهمس في أذن يوسف بأن ما حدث يجب أن يضمّر في السرائر، فلا يجري به لسان، فالمقام يدل على رغبة العزيز في إنهاء الكلام، وعدم التطويل فيه.

ويكشف حذف حرف النداء عن ضيق صدر العزيز، وما يعانيه من آلام نفسية، عندما تعرف على حقيقة ما حدث، ويثبت له أن امرأته هي التي أرادت سوء، فأجمل الكلام باختصارٍ باسم الإشارة (هذا) رغبة في إخفائه، لكن أنى له ذلك، فقد انتشر الخبر بسرعة فائقة في المدينة كما جاء في قوله تعالى: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ) [يوسف: ٣٠]. غير أن القرآن طوى جملاً، تبين كيفية انتشار الخبر وذيوعه، لكن هذا الحذف في غاية الإيجاز والإعجاز.

ومن أمثلة حذف الحرف، حذف (حرف النفي " لا ")، في قوله تعالى: (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُوا بِذِكْرِ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) [يوسف: ٨٥] وتقدير الكلام: لا تفتأ، ودليل الحذف خلو جواب القسم من التأكيد؛ لأن جواب القسم يؤكد إذا كان مثبتاً، نحو: " تالله لأفعلن "، فهذا الحذف " على التوسع والإيجاز "<sup>(٢)</sup>.

واشتملت الآية على انتلاف عجيب بين اللفظ والمعنى، وهو أن الله عز وجل أتى بأغرب حروف القسم وهو (التاء)، وبأغرب الأفعال الناسخة وهو (تفتأ)، وبأغرب ألقاظ الهلاك وهو (الحرص)، وهذه الغرابة في الألفاظ تتلاءم مع غرابة مطلب الإخوة من أبيهم بأن ينسى فلذة كبده، فحذف الحرف في هذا السياق الذي تتراحم فيه الكلمات الغريبة؛ "يشعر برغبة الأبناء، وغرابة مطلبهم، إنهم يطلبون من أب نسيان ابنه، فهم يريدون أن ينسى يعقوب -عليه السلام- ولده، وأن يبعده من قلبه، ويسقط من وجدانه، وليس في مخالفة المؤلف أدخل من هذا "<sup>(٣)</sup>.

ويستخدم القرآن حذف الحرف، ليصور السرعة التي تمّ بها الحدث، كما في قوله تعالى (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) [يوسف: ٢٥] والتقدير: واستبقا إلى الباب، والحذف " للمبالغة في الإسراع "<sup>(٤)</sup>.

(١) الزركشي: المهان في علوم القرآن، ٢١٣/٣.

(٢) العلوي: الطراز، ١٠٥/٢.

(٣) أبو موسى، محمد: خصائص التراكيب، ص ١١٥.

(٤) أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ١٣١/٣.

ومن صور الحذف، في سورة يوسف حذف المضاف، كقوله تعالى: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) [يوسف: ٨٢] والتقدير: أهل القرية، وأهل العير، فالحذف "على التوسع والإيجاز" (١).

ويشعر هذا الحذف بشيوع الأمر وشهرته، وكأن الأبناء يريدون أن يخبروا أباهم، أن قضية السرقة معروفة لدى جميع الناس، وبلغت في الشهرة حداً، لو أنه سال فيه الجمادات لأجابت، ولو سال الحيوانات التي لا تتطق لأخبرته بالحقيقة.

وأشار الجرجاني إلى أن "من المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ، القطع والاستئناف، يبدؤون بذكر الرجل، ويقدمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول، ويستأنفون كلاماً آخر، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ" (٢) من ذلك قوله تعالى: (قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ) [يوسف: ٤٤]، إذ حذف المبتدأ والتقدير: ما تقوله أضغاث أحلام، والسر وراء هذا الحذف، أن المملأ لا يريدون أن يسندوا أضغاث الأحلام وتخاليطها إلى الملك، فحذفوا المسند إليه تنزيهاً له، ورفعاً من شأنه.

ويحذف المسند إليه (الفاعل) لتحقيره، كما في قوله تعالى: (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيْسَ جُنَّتْهُ حَتَّىٰ حِينٍ) [يوسف: ٣٥].

فالفاعل للفاعل (بدا) محذوف، تقديره: "ثم بدا لهم بداء" أي: ظهر لهم رأي، ليسجننه، والآيات الشواهد على براءة يوسف، وعمل العزيز بما طلبته زوجته، يدل على طواعيته لها" (٣).

ويعلق الدكتور أحمد بدوي على الآية بقوله: "إن جملة (ليسجننه)، بما فيها من أدوات التوكيد، أغنت عن ذكر الفاعل، وكان المجيء بتلك الجملة مصوراً لما حدث من هؤلاء القوم، ومعبراً عما كان من أمرهم وهم يتشاورن في أمر يوسف، فقد قلبوا وجوه الرأي بينهم، ثم بدا لهم في عقولهم أمر، عبروا عنه بقولهم: "ليسجننه" فكانت الآية حاكية لما حدث، مصورة له" (٤).

إذن، حذف المسند إليه في الآية يشير إلى "الاستخفاف بالأمر الذي أزمعوه ضد يوسف ظلماً، وهو أمر ساقط جائر، بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات وتنبئت براءته" (٥)، فيجب عدم الاعتداد (بالفاعل، وإسقاطه من الجملة أسلوبياً، دال إلى عدم وجوده، والاكتراث به، عند ذوي العقول السليمة.

(١) الألوسي: روح المعاني، ١٣/٣٧.

(٢) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ١٤٧.

(٣) الزمخشري: الكشاف، ٤٤١/٢.

(٤) بدوي: أحمد، من بلاغة القرآن، ص ١٢٠.

(٥) أبو موسى: محمد، خصائص التراكيب، ص ١٣٣.

ومما احتتمل حذف المسند إليه أو المسند - على السواء - قوله تعالى: (فَصَبِرْ جَمِيلًا) [يوسف: ١٨، ٨٣]، فيحتتمل حذف (المسند إليه)، والتقدير: فأمرني صبر جميل، ويحتتمل - أيضاً - حذف المسند، والتقدير: فصبرٌ جميلٌ أجملٌ أصبِرُهُ.

فإذا كان المحذوف هو المسند، فهو بقصد الاختصار والاحتراز عن العبث، لضيق المقام بسبب التوجع، " فالحذف للمسند (الخبر)، للكثرة، أما حذف المبتدأ فهو أبلغ، لاختصاص يعقوب بالصبر واحتماله <sup>(١)</sup>.

والسياق النظمي يتطلب حذف المسند إليه "المبتدأ"؛ " لأن الكلام مسوق للمدح بحصول الصبر وتحققه، تعظيماً ليعقوب - عليه السلام -، والإشادة بصبره <sup>(٢)</sup>.

والسر في تعظيم صبر يعقوب - عليه السلام - اتصاله بالله تعالى، فهو صبر جميل "لا شكوى فيه، وهو طلب الإعانة منه تعالى على الصبر، ذلك أن الدواعي النفسانية تدعو إلى إظهار الجزع، والدواعي الروحانية تدعو إلى الصبر الجميل <sup>(٣)</sup>.

إذن، الحذف في الآية الكريمة " فصبر جميل " يبرز حال يعقوب - عليه السلام - ويكشف عما أحاط به من أحزان لفقد ولده - يوسف عليه السلام - . كما يشعر بعظيم صبره، واستحقاقه المدح من الله تعالى، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر بقوله: " ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره، وترى الملاحظة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به <sup>(٤)</sup> فذكر المسند إليه (المبتدأ)، يذهب صفة العظمة والمدح لهذا الصبر.

ويحذف (المسند إليه) الفاعل؛ تعظيماً له، عندما يقوم المفعول مقامه، كما في قوله تعالى:-  
(يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدَكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ  
الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) [يوسف: ٤١]. فقوله " يُصَلِّبُ " حذف الفاعل تعظيماً له؛ " لأن الذي له قوة أن يُصَلِّبَ إنما هو الملك <sup>(٥)</sup>، ويمكن أن يكون حذفه لشناعة ذكره؛ فالصلب أمر مخيف، يشمئز النفس من ذكر من يقوم به، والدليل على ذلك أن الفعل الذي أسند للفيتى الناجي جاء للمعلوم "قيسقي ربه خمرًا".

أما قوله " قُضِيَ الأمر "، فيدل على أن الذي قضاه يوسف للفيتين كان عظيم القدر، والقاضي أصلاً - هو الله تعالى، الذي علم يوسف تأويل رؤياهما، فالحذف لقصد تعظيمه وتفخيمه، وتشير

(١) العلوي: الطراز، ١١٨/٢.

(٢) أبو موسى محمد، خصائص التراكيب، ص ١٢٣.

(٣) الألوسي: روح المعاني ٣٩٢/١٢-٣٩٣.

(٤) المرحان: دلائل الإعجاز، ص ١٥٢.

(٥) البقاعي: برهان الدين: نظم الدرر ٩١/١٠.

"صيغة البناء للمفعول إلى عظمة الله وسهولة الأمور عليه"<sup>(١)</sup>. وقيل " حذف الفاعل لعدم الجدوى من ذكره، لأن أكبرَ هَمَّ الفَتِيَيْنِ هو تعبير رويهما "<sup>(٢)</sup>.

ويحذف المسند إليه (الفاعل) " سترأ عليه، أو للنزاع في القاذ والجهل به "<sup>(٣)</sup>. كما في قوله تعالى: (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ ذُبُرٍ) [يوسف: ٢٧] أو للتعميم كما في قوله تعالى: - (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ) [يوسف: ٣٧] فبناء الفعل (ترزقانه) لقصد الشمول والعموم.

ومن صور الحذف في السورة الكريمة، حذف المفعول؛ عندما يكون المراد " الاقتصار على إثبات المعاني التي اشتقت منها الأفعال للفاعلين، من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين. فإذا كان الأمر كذلك كان الفعل المتعدي كغير المتعدي"<sup>(٤)</sup>. من ذلك قوله تعالى: (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَغْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) [يوسف: ١٠]. والتقدير: (إِنَّ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ إلقاء يوسف في الجب)، فحذف المفعول، للتركيز على الحدث، لقصد تحويره، وأنه لا يستحق الذكر، مع ما يتضمنه حذف مفعول (فاعلين)، من رعاية الفاصلة في السورة.

ويحذف المفعول، لدلالة السياق على الكثرة والعموم، كما في قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [يوسف: ٢]، فحذف مفعول (تعقلون)، " لأشياء كثيرة من العلوم، من إعجاز وغيره "<sup>(٥)</sup>.

وقد يكون حذفه، لدلالة التوبيخ، كما في قوله تعالى: (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَئِمَّةُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [يوسف: ٤٠] أي: " لا يعلمون شيئاً أصلاً فيعبدون أسماء سمّوها من تلقاء أنفسهم، معرضين عن البرهان العقلي"، "فحذف مفعول (يعلمون)؛ لأن المخاطبين يجهلون الدين القيم، وهو توحيد الله وعبادته"<sup>(٦)</sup>. فالمفعول المحذوف، "لا يستحق الذكر؛ لأنه أهل الإضطراب لعدم التأمل على أن الله تعالى عالٍ على كل أمر، وأن الحكم له وحده"<sup>(٧)</sup>.

(١) السابق ٩١/١٠.

(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٧٨/١٢.

(٣) بنظر: الأندلسي: البحر المحيط، ٢٩٨/٥، والقاسمي: نظم الدرر، ٦٩/١٠.

(٤) المرجحان: دلائل الإعجاز، ١٥٤.

(٥) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٠٢/١٢.

(٦) أبو السعود: إرشاد العقل السليم ١٤٨/٣.

(٧) القاسمي: نظم الدرر، ٥٠/١٠.



ويحذف المفعول إذا قصد بالفعل المتعدي التعميم، كقوله تعالى: (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) [يوسف: ٤٦]. فالآية على لسان الفتى، الذي جاء يستفتي يوسف في رؤيا الملك، لتأويلها فحذف مفعول (يعلمون)، " لأن كل واحد يعلم ما يفيد علمه من تأويل هذه الرؤيا "(١)، مع المحافظة على بقاء فاصلة النون.

وتبرز في السورة الكريمة، ظاهرة حذف جواب الشرط، لقصد الإيجاز والاختصار، من أمثلة ذلك قوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ) [يوسف: ١٥]. فقد حذف جواب (لما) وتقديره: "فعلوا به ما فعلوا من الأذى حتى كادوا يقتلونه، أو يكون التقدير: جعلوه في الجب" (٢).

وهذا الحذف للإيجاز الذي يختص به القرآن، الذي يقلل الألفاظ لظهور المعنى، أو " للإيجاز بظهور الجواب. وإشعار بأن تفصيله مما لا يحويه فلك العبارة، لعظيم فعلة الإخوة بأخيهم" (٣)، فحذف الجواب لقصد التعجب والتهويل على النفوس من إقدام إخوة كبار على إبعاد أخ صغير عن أبيه، وإيذائه دون وجه حق، فعظم الموقف هو الذي سوغ الحذف.

ويحذف جواب الشرط إذا قصد به المدح، كمدح يوسف -عليه السلام- عندما امتنع عن المرأة التي راودته، ويظهر ذلك في قوله تعالى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) [يوسف: ٢٤]، فحذف جواب (لولا)، واختلف في تقديره؛ فمنهم من رأى أن يوسف -عليه السلام- هم بدفعها عنه، ومنهم من رأى "أنه هم بها يخالطها" (٤)، وهذا هو الرأي الراجح، لما فيه من إثبات الرجولة الكاملة ليوسف -عليه السلام-، والتي بدونها لم يكن لامتناعه عنها فضل، ولا يستحق المدح، من الله تعالى، فيوسف -عليه السلام- بشر مكتمل الرجولة، ولكن حال بينه وبينها رؤية البرهان، وحفظ الله له، لكونه من عباده المخلصين. فلولا أن رأى برهان ربه (خالطها)، وبذلك تبرز قيمة حذف الجواب.

وتتحقق حذف جواب (لولا) -أيضاً- في قوله تعالى: (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) [يوسف: ٩٤] فتقدير الجواب " لولا تفنيديكم إياي لصدقتموني" (٥)، والمقصود: أن يخبرهم يعقوب -عليه السلام- بشعوره بوجود يوسف على قيد الحياة، ورجائه في لقائه، وحذف الجواب يكشف عن الحالة النفسية ليعقوب -عليه السلام- الذي يعاني من لوم مستمر

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٨٥/١٢.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ٩٩/١٨، وبنظر ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٣٣/١٢.

(٣) الألوسي: روح المعاني، ٣٨٨/١٢.

(٤) بنظر الزمخشري، الكشاف، ٤٢٩/٢-٤٣٠، والباقى: نظم الدرر، ٦٣/١٠.

(٥) الزمخشري: الكشاف، ٤٧٥/٢.

من أهله، بسبب تذكره المستمر ليوسف، فخوفاً من أن يتهموه بالخرف وزوال العقل، لكشف الحاضرين عن شعوره.

ومن الظواهر اللافتة للنظر في سورة يوسف ظاهرة حذف الجمل، والمشاهد التي تغطي معظم آيات السورة الكريمة. ونورد أمثلة لهذا النوع من الحذف، الذي يتجلى فيه الإيجاز، والإعجاز على السواء. فليس سهلاً أن يحذف البليغ جملًا من كلامه، ويستقيم المعنى المراد. وهذا الحذف "لا تكاد تجده إلا في كتاب الله تعالى، ذلك أن الجملة ذات فائدة مستقلة، وحينما تحذف فإن ذلك سيحدث خللاً في المعنى، ونقصاً في الغرض المقصود، فلا يستطيع أحد أن يرتب كلامه بحيث إذا حذف منه جملًا مستقلة يؤدي الغرض المراد. لكن كلام رب العالمين المعجز يعطيك المعاني كاملة، وإنك مع ذلك تجد حلوة الإيجاز، في هذا الحذف، ناشئة عن روعة الإعجاز"<sup>(١)</sup>.

وجملة الرأي في حذف الجمل عند البلاغيين، يجمله صاحب الطراز بقوله: "اعلم أن حذف الجمل للإيجاز له في البلاغة مدخل عظيم، وأكثر ما يرد في كتاب الله تعالى، وما ذاك إلا من أجل رسوخ قدمه، وظهور أثره، واشتهار علمه"<sup>(٢)</sup>.

لكن السياق النظمي الذي يرد فيه هذا النوع من الحذف، لا يقف على مجرد الإيجاز، بل يتعداه إلى دلالات إضافية يقتضيها المقام، انظر إلى قوله تعالى على لسان المرأة (وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَنِّيهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ) [يوسف: ٣١]، فالآية تشتمل على حذف جملة تقديرها: أخرج عليهن (فخرج)، فلما رأينه أكبرنه. ووراء هذا الحذف مقصد يتمثل في تحقيق المفاجأة للنسوة، عندما يرون يوسف، وإذان بسرعة امتثاله عليه السلام لأمرها، بحكم منزلته من منزلتها. فالزمن الذي اقتضاه الموقف يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف .

ومن أمثلة حذف الجمل، ما جاء في الحوار الذي حصل بين إخوة يوسف وأبيهم، عندما طلبوا منه، إرسال يوسف معهم، ويجيبهم بأنه يخاف أن يأكله الذئب، يحكي القرآن على لسانهم: (قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ) [يوسف: ١٤]، والآن يترقب القارئ نتيجة هذا الحوار، أيقبل الوالد أن يرسل ابنه معهم؟ أم أنه يرفض ذلك؟ لكن القرآن يحذف جملًا، إذ لا يتأثر المعنى بحذفها، بل يزيدا إيجازاً وإعجازاً، ودل على الحذف الآية التي تلي الأنفة الذكر في قوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ) [يوسف: ١٥].

من ذلك أيضاً قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي) [يوسف: ٤٥] فحذف جملًا، والتقدير: فأرسلوني إلى يوسف، لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه

<sup>(١)</sup> عباس، فضل: البلاغة فنونها وأفعالها - علم المعاني - ، ص ٤٦٧.

<sup>(٢)</sup> العلوي، الطراز ، ٩٣/٢.

إليه، فاتاه وقال له: يا (يوسفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سِنِّعِ بَقَرَاتِ) [يوسف: ٤٦] والسر في هذا الحذف هو الإيجاز، إذ لا غرض فيه بالقصة، لأن بسط الكلام فيه يؤدي إلى الإطالة المفضية إلى الخلل، وهذا ليس من خصائص أسلوب القرآن المعجز، الذي يقوم على الإيجاز مع جلاء المعنى ووضوحه.

ثم إن المقام يتطلب الحذف، فالملك يريد تأويل رؤياه بأقصى سرعة ممكنة، فانتهاز الفتى الذي خبر يوسف من قبل فرصة عجز الملاء عن تأويلها، وهذا كله جرى في فترة قصيرة عتبر عنها القرآن بحذف الجمل.

ومما هو في هذا الباب قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) [يوسف: ٥٤]، فالآية تشتمل على محذوف، تقديره: فأتوا بيوسف إلى الملك، بعدما أخرجوه من السجن، فلما كلم يوسف الملك، قال الملك "إنك اليوم لدينا مكين أمين"، وهذا الحذف على ما يتضمنه من إيجاز، فإنه "يدل على سرعة الإتيان بيوسف فكانه لم يكن بين الأمر بإحضاره، والخطاب معه، زماناً أصلاً"،<sup>(١)</sup> فالحذف يظهر شدة شوق الملك لرؤية يوسف واستخلاصه لنفسه، والإتيان بالمحذوف يتعارض مع نفسية الملك، التي تريد إحضار يوسف بأقصى سرعة ممكنة، ثم إن كيفية تنفيذ أمر الملك في إحضار يوسف معلومة بالضرورة في سياق القصة وذكرها يشغل عن تأويل ما في القصة من عبرة.

وشبيهه بذلك مشهد مجيء إخوة يوسف من أرض كنعان (فلسطين) إلى مصر، في قوله تعالى: (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ، وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ) [يوسف: ٥٨-٥٩].

ولقارئ أن يتساءل كيف طلب يوسف من إخوته الإتيان بينيامين؟ لا بد من أن تكون هنا جملاً محذوفاً، فبعد أن عرفوه بأنفسهم، وشرحوا له عن حالتهم الاجتماعية، وعن أبيهم يعقوب - عليه السلام - وعن الأخ الذي تركوه عنده، بعدها قال لهم يوسف: " ائتوني بأخ لكم ... " هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد اختصر القرآن مشهد رحلة الإخوة الطويلة من أرض كنعان (فلسطين)، إلى مصر، وعتبر عنها القرآن باستخدام الفعل (جاء) الذي يطوى زماناً طويلاً، وأحداثاً في الطريق، يُعدُّ ذكرها عبثاً؛ لأنه لا يثير وجدان القارئ، لمتابعة أحداث القصة بوعي، ليقف على مواطن العبرة فيها.

ومثل هذا الحذف قوله تعالى: (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ) [يوسف: ٨٧]، فحذف: " فذهبوا إلى مصر بموجب أمر أبيهم، ولما وصلوا مصر " جاءت الآية الكريمة (فَلَمَّا

(١) الألويسي: روح المعاني، ٦/١٣.

دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَانَا الضُّرُّ [يوسف: ٨٨]. فهذا الحذف على إيجازه يؤذن بمسارعة الإخوة إلى تنفيذ ما أمروا به، وإشعاراً بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان. ومن البلاغة القرآنية المتصلة بحذف الجمل قوله تعالى في نهاية القصة: -- (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ) [يوسف: ٩٨-٩٩] فبين الأيتين حذف جمل، وهذا الحذف إيجاز، وفيه تكثيف وسرعة لشدة الشوق إلى يوسف -عليه السلام- .

ومهما يكن من شأن فمبحث الحذف في سورة يوسف قد تجلّى في صور متنوعة، وإن كان حذف الجمل قد جاء بشكل لافت للنظر يعود إلى طابع السورة القصصي، ولا ننسى أنه أسلوب قرآني معجز، يتسم بالإيجاز والإعجاز.

## الفصل الثالث

"من أساليب الجملة الإنشائية الطلبية في سورة يوسف

- عليه السلام -"

- الأمر

- النهي

- الاستفهام

- النداء

- الحذف

## من أساليب الجملة الإنشائية الطلبية في سورة يوسف - عليه السلام

ما جرى به اللسان العربي من كلام، لا يخرج عن كونه خبراً أو إنشَاء؛ فالخبر - كما مر سابقاً - قولٌ يحتمل الصدق والكذب لذاته.<sup>(١)</sup>

أما الإنشاء :- فهو قولٌ لا يحتمل الصدق أو الكذب<sup>(٢)</sup>، وهو استدعاء أمر غير حاصل ليحصل . والإنشاء ضربان:-

إنشاء طلبي:- وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ويشمل الأمر، والاستفهام، والنداء، والتمني. فهذه أساليب لا تخبر فيها عن شيء، ولا تنسب شيئاً إلى أحد، وإنما تطلب عمل شيء؛ "وسميت إنشائية؛ لأنها تطالبك أن تتشئ شيئاً بالأمر، أو النهي، أو الاستفهام"<sup>(٣)</sup>.

وإنشاء غير طلبي:- وهو لا يستدعي مطلوباً، وله صيغ كثيرة منها:- القسم، والمدح، والذم، والترجي، والتعجب<sup>(٤)</sup>.

وقد اهتم البلاغيون بدراسة الإنشاء الطلبي؛ لأنه يتولد من أنواعه - الأنفة الذكر -، بحسب السياق والقرائن، معانٍ بلاغية كثيرة.

وسأتناول في هذا الفصل أساليب الإنشاء الطلبي المتحققة في سورة يوسف - عليه السلام -.

<sup>(١)</sup> العلوي: الطراز، ٢٩٣/٣. وينظر: الفزويني، الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، ٥١/٣-٥٢.

<sup>(٢)</sup> السامرائي، إبراهيم: الأساليب الإنشائية في العربية النعظ والاستعمال، رسالة ماجستير، جامعة البروك، آب ١٩٨٧م، ص٧.

<sup>(٣)</sup> الفزويني، الخطيب: شرح التلخيص في علوم البلاغة، ص٨١.

## المبحث الأول - أسلوب الأمر:

يُعدُّ الأمر أحد الأساليب الإنشائية الطليعية، ويعرّف بأنه: - "طلبُ الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام. وله أربع صيغ قياسية هي: - فعل الأمر الصريح، والمضارع المقترن بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر"<sup>(١)</sup>.

غير أن الأمر يخرج عن أصله في النظام النحوي، إلى دلالات معنوية، ومقاصد أسلوبية، باعتبار القرائن، وسياق الكلام. وهذا ما قصده السكاكي في تعريفه للأمر إذ قال: - "عبارة عن استعمال نحو لينزل، وانزل ونزال، وصنّه، على سبيل الاستعلاء .... وتوقف ما سواه من الدعاء، والالتماس، والسندب، والإباحة، والتهديد على اعتبار القرائن."<sup>(٢)</sup> ويسميه بعضهم "الأمر المجازي، لأنه لا أمر فيه"<sup>(٣)</sup>.

وقد شكّل أسلوب الأمر في سورة يوسف - عليه السلام - ظاهرةً تلفت النظر، إذ حققت أغراضاً بلاغية عدة منها: -

١- **الدعاء** :- وهو طلب الأدنى من الأعلى، والمخلوق من الخالق على سبيل الاستغاثة والعون والرحمة. "ويسميه ابن فارس المسألة"<sup>(٤)</sup> أي: - يطلب فيها الأول من الثاني على سبيل المسألة شيئاً يمكنه تحقيقه.

والدعاء في سورة يوسف وفي غيرها من سور القرآن، يرسم حالة من حالات الخضوع والانقياد لله تعالى، لاعتقاد الداعي أن المدعو قادرٌ على تنفيذ هذا الأمر، فيلجأ إليه متضرعاً متوسلاً، وقد ورد الأمر الدال على هذا المقصد الأسلوب في قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف - عليه السلام - (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [يوسف ١٠١]. فالأمر في الآية، ورد مرتين (توفني) و (الحقني). وهو يفيد الدعاء بطلب الوفاة على حال الإسلام، وبأن يختتم له بالخير والحسنى، ويجوز "أن يكون تمنياً للموت على ما قيل، وألحقتني بالصالحين من آبائي أو على

<sup>(١)</sup> ينظر العلوي، يحيى: الطراز، ٢٨١/٣. القزويني، الخطيب: الإيضاح، ٨١/٣.

<sup>(٢)</sup> السكاكي، أبو يعقوب: مفتاح العلوم، طبعة البان الملبي وأولاده، القاهرة ١٩٣٧م، ص ١٥٢. وينظر: ابن فارس، أحمد: الصحاح، نج. السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، د.ت ص ٢٩٨.

<sup>(٣)</sup> سلطان، منير: بلاغة الكلمة والجملة والجملة: ط ٢، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٩٣م، ص ١٢٠.

<sup>(٤)</sup> ابن فارس، أحمد: الصحاح، ص ٢٩٨.

العموم<sup>(١)</sup> و غرض الدعاء متحقق في الأمر، سواء " أكان يوسف نبياً، وفي هذه الحالة يكون دعاؤه لطلب الدوام على ذلك، أم كان نبياً فيما بعد فهو دعاء في حصوله " <sup>(٢)</sup>.

وقد حققت الجملة الدعائية صفات الإخلاص والقنوت لله وحده من جانب سيدنا يوسف-عليه السلام- لما لها من أثر جليل في توطيد دعائم الصلة الروحية وتوثيقها بالله عز وجل، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى تميزت الجملة الدعائية بنمط أسلوبى آخر؛ وهو ورود النداء قبلها المصحوب بحذف أداة النداء (رب) وفي هذا دلالة على شدة القرب الشعوري، ويقين باستجابة الله له.

ومن الظواهر الأسلوبية للجملة الدعائية في الآية الكريمة أنها سبقت بجملة خبرية (قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، أَنْتَ وَلِيٌّ) أضفت مزيداً من الاعتراف والإقرار من جانب يوسف-عليه السلام- بنعم الله الكثيرة عليه والتي تستوجب الإيمان بالله، ومن ثم، اختياره لقاء ربه. ولتدعيم ذلك جاء بالجملة الفعلية التي تفيد التجدد والاستمرار في الحدث (إتيان الملك، تعليم تأويل الأحاديث) أدى ذلك في زيادة اعتصام يوسف-عليه السلام- بالله وحقق هذا الاعتصام بالجملة الاسمية (أنت وليي) التي تفيد الثبات، وقد أفاد تقديم المسند إليه (المبتدأ - أنت) انحرافاً دلاليّاً في الجملة وهو الاختصاص، أي: - أنت-الله- وليّ أنا يوسف، وحدك، في الدنيا والآخرة.

إن تضافر الجملة الدعائية مع الجمل الخبرية، في سياق الآية، منحها الاتساق والتلاحم في النظم، إضافة إلى مقاصدها الأسلوبية والدلالية العميقة.

ومن الملاحظ الأسلوبية في الآية، تقديم الوفاة على الإسلام؛ وفي هذا دلالة على خلود رسالة الإسلام، وأن الأنبياء من لدن آدم جاءوا بعبقيدة التوحيد التي ختمت بها رسالة محمد-عليه الصلاة والسلام- وفي ذلك إشارة إلى إعجاز القرآن الغيبي بخصوص رسالة سيدنا محمد خاتمة الرسالات، فهي الصالحة لكل زمان ومكان.

ويستدخّل غرض الدعاء مع دلالاتي التمكين والإكرام، كما ورد في قوله تعالى على لسان يوسف-عليه السلام- مخاطباً أهله:- (ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ أَمِينِينَ) [يوسف: ٩٩] ففي قوله (ادخلوا) دعاء بالدخول؛ بقرينة قوله تعالى (إن شاء الله)؛ لكونهم قد دخلوا مصر حينئذ، كالذي في قوله تعالى (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ) [الأعراف: ٤٩]. لأن (أمينين) هي مناط الدعاء<sup>(٣)</sup>.

وأرى أن الآية تشتمل على معنى الدعاء -أيضاً- لأن دخول مصر مصحوباً بالأمن لن يتحقق إلا بمشيئة الله. ولهذا السبب اشتملت الآية على تقديم (إن شاء الله) على حال الدخول (أمينين).

<sup>(١)</sup> الزمخشري: الكشاف: ٤٧٨/٢.

<sup>(٢)</sup> ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ٦٠/١٣.

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق، ٥٥/١٣.



كما تفرعت دلالة الإكرام والتمكين عن هذا الدخول المتحقق بأمر الله، وهذا الإكرام يليق بمقام يعقوب-عليه السلام- الذي صبر صبراً جميلاً، على فقد ولده يوسف، وبالتالي سُخِرَ يوسف ليقوم بهذا الإكرام لنبيّ الله الكريم بن الكريم بن الكريم.

والظاهر أن دخول مصر في تلك الظروف أمرٌ عظيم؛ يطوي في غيابهاته مراحل من الشقاء والقحط والتعب، وينبئ عن بداية مرحلة جديدة. وقد اقتضى دخول مصر، الجمع بين الأحباب والذرية من آل يعقوب، وقد جاء فعل الدخول مسنداً إلى واو الجماعة ليدل على ذلك.

والتصريح بلفظ (مصر)، في السياق القرآني، له دلالاته الأسلوبية، تتمثل في أن مصر نصيرة فلسطين في الشدائد؛ فالجفاف والقحط اللذان أصابا أرض كنعان (فلسطين) كانت مصر محط الأمل والرجاء، وهذا ما حصل فعلاً.

وبدا معنى الدعاء جلياً في قوله تعالى (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا) [يوسف: ٤٦] فقد ناداه الفتى السذي أرسله الملك، وخبر صدق يوسف عندما أنبأه برؤياه ورؤيا صاحبه في السجن. فصَدَّرَ نداءه "بأيها البليغ في الصدق، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله، وتعرف صدقه، في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه، حيث جاء كما أوّل" (١).

والملاحظ؛ أن الأمر هنا عُبِّرَ عنه (بالإفتاء) في حين، أن الأمر في المرة السابقة جاء بلفظة (الإنباء - نبئنا) ويظهر أن التعبير (بأفتنا) جاءت؛ لأن "الساقى الذي نُجِيَ عَيْنَ علو رتبته عليه السلام بالفضل" (٢).

ويظهر أن التعبير بـ (أفتنا) اشتمل على معنى الإنباء والتكريم والتعظيم، كما أن حذف حرف النداء قبل الطلب، يوحى بالقرب الشعوري والوجداني، الذي يحظى به يوسف-عليه السلام- في نفس الفتى. ثم إن على المستفتي أن يعظم المفتي، وأن يكون طلبه على سبيل الرجاء وطلب الرحمة.

٢- **الالتماس:** وهو طلب الند من الند؛ أي طلب الفعل الصادر عن الأنداد والنظراء المتساوين قدرأ ومنزلة. ومعناه "طلب الفعل على سبيل التلطف-من دون استعلاء- والتضرع" (٣).

وهو من الأغراض الأسلوبية التي يخرج إليها أسلوب الأمر ضمن سياقات الكلام، وقد ورد الأمر بهذا المعنى في قوله تعالى على لسان العزيز مخاطباً زوجته:- (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ

(١) الزمخشري: الكشاف، ٤٤٩/٢.

(٢) أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ١٥٣/٣.

(٣) القزويني: الإيضاح، ٨٦/٣.

لِلْمَرْأَةِ الْكُرْمِيِّ مَثْوَاهُ) [يوسف: ٢١]: ففعل الأمر يحمل معنى الإلتماس، الذي يشتمل على طلب مشفوع بحسن الضيافة والاستقبال، وفيه أيضاً إشارة إلى طول المدة، فليس الإكرام بحضور أو زيادة، وإنما الإكرام جاء للمثوي بما تحمل دلالة الكلمة من بعد زمني.

ومثله قوله تعالى: (يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ) [يوسف: ٢٩] فالأمر في (أعرض) التماس؛ لأن الشاهد الذي هو من أهل امرأة العزيز حكم ببراءة يوسف-عليه السلام- وبالتالي التماس العزيز من يوسف كتمان الأمر، وعدم ذكره لأحد، وفي هذا الإلتماس "رد اعتبار ليوسف عليه السلام- أما خطاب العزيز لامرأته (واستغفري) ففيه معنى اللوم؛ لأن ادعاءها من كيد النساء، في حين أنه طلب من يوسف-عليه السلام- عدم مواخذتها لذلك، وهذا عطف أمر على أمر، والمأمور مختلف"<sup>(١)</sup>.

إن الملحظ الأسلوبى لصيغة (أعرض) أنها عبّرت عن مشاعر العزيز، فلجأ إلى صيغة النداء (يوسف أعرض) كما حذف أداة النداء؛ لزيادة التقريب والمحبة ومن ثم الرجاء من يوسف-عليه السلام- الإعراض عن هذا الأمر، - المرادة - وعدم الخوض فيه، وهذا بدوره حول النداء والأمر من دلالة لغوية، إلى دلالة وجدانية شعورية يحكمها السياق والموقف. وذكر يوسف قبل فعل الأمر له دلالة أخرى تشير إلى قرب يوسف من نفس الأمر.

ويلمح معنى الإلتماس في قوله تعالى (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) [يوسف: ٣٦] فالآية جاءت على لسان أحد الفَتَيَيْنِ المسجونين بصحبة يوسف السجين-عليه السلام-، فالتمسا إليه "بأن يفرج عنهما الغمة بتأويل ما رأياه، إن كانت له يد في تأويل الرويا"<sup>(٢)</sup>.

ومما يؤكد دلالة الإلتماس في (نبئنا) نداؤه- عليه السلام- لهما باسم الصحبة التي تخلص فيها المودة في أماكن مثل السجن (يا صاحبي السجن).

### ٣- النصم والإرشاد:-

يرد الأمر في القرآن الكريم بعامة، وفي سورة يوسف بخاصة، لإفادة غرض يتفق مع الهدف القرآني العام، وهو تحقيق العبودية الحقّة لله وحده، وهذا الهدف يحتاج إلى أساليب متعددة لترسيخه في ذهن المخاطب، وقلبه. ومن هذه الأساليب؛ النصم والإرشاد، وهو الطلب الذي يخلو من التكليف والإلزام، ويحمل بين طياته معنى النصيحة والإرشاد. نحو قوله تعالى: على لسان أحد إخوة يوسف عندما عزموا على قتله أو نفيه:- (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ

<sup>(١)</sup> ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، ٢٥٨/١٢-٢٥٩.

<sup>(٢)</sup> الألوسي: روح المعاني، ٤٣٠/١٢.

الْجَبُّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) [يوسف: ١٠]. "الجب هي البئر التي لم تُطَوَّ" (١) ومعنى الآية: "ألقوه في قعر الجب وغوره، وسمي بها لغيبته عن عين الناظر، والأمر فيه إبداء المشورة لتأليف قلوبهم وتوجيهها إلى رأيه، فالقاء يوسف -عليه السلام- في غيابة الجب، هو الأمل مما أشار به الآخرون، فهو الأقرب إلى التقوى، فالأمر مستعمل في الإرشاد" (٢).

وأرى أن المقصد الأسلوبي للأمر (والقوه) دالٌّ على النصيح والإرشاد، ولكنه جاء بطريقة إبداء الرأي والمشورة، بدليل قوله (إن كنتم فاعلين) أي: إن كنتم فاعلين بيوسف شيئاً، فالرأي عندي، إلقاءه في غيابة الجب، فيتحقق مرادكم بإبعاده عن أبيكم، يعقوب -عليه السلام-، ومجيء القائل نكرة؛ لأن المقصود هو ما أبداه من رأي يُبقي من خلاله -يوسف -على قيد الحياة- بإذن الله تعالى. وأسلوب الشرط فيه دلالة التثبيط لهممهم عن ما هم عازمون عليه.

وقد دلَّ الأسلوب اللغوي الذي اشتمل سياق الأمر على ذكاء القائل وذلك باقتراحه إلقاء يوسف في الجب؛ لأن التعريف في كلمة (الجب) دلَّ على العهد أي: - أن هذه البئر معهودة للناس، إذن فسوف يلتقطه بعض المسافرين، فيتحقق ما يصبو إليه وهو نجاة يوسف.

ومن بديع معنى النصيح والإرشاد، قوله تعالى -على لسان الفتى الذي نجا من الموت، وعودته إلى قصر الملك- (أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) [يوسف: ٤٥] فسياق الآية جاء بعد أن رأى الملك رؤيا عجيبة، عجز عن تأويلها أعيانه وخاصته، وأشرف دولته، وبأمر الله -تذكر الفتى الذي يعمل ساقياً للملك يوسف -عليه السلام- فنصحهم أن يبعثوه إلى يوسف لاستعباره، وحثهم على ذلك؛ بدليل " أنه أسند الإنباء إليه، وهو مجاز عقلي؛ لأنه سبب الإفتاء، ولذلك قال (فأرسلون) وفي ذلك ما يستفز الملك إلى أن يأذن له بالذهاب إلى حيث يريد، وهذا خطاب للملك على جهة التعظيم" (٣).

وثمة نمطان أسلوبيان دلَّا على نفسية الفتى ورغبته في أن يكون صاحب الخطوة بالإرسال إلى يوسف:

**الأول:** تقديم المسند إليه (أنا أنبئكم) وفي هذا دلالة تقوية الحكم وتقديره كأنه يقرر أنه القادر على الإنباء، وإثبات نفسه في معادلة التعريف بشيء مجهول.

**الثاني:** الحذف، فلم يقل: - فأرسلون إلى يوسف، وبذلك "يجعل الأمر مبهماً ويكون لا مفر من إرساله دون غيره.

(١) ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، ٢٥٠/١.

(٢) الألويسي: محمود: روح المعاني ٣٨٥/١٢، وينظر ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٢٦/١٢.

(٣) ابن عاشور، ٢٨٣/١٢.

وفي قوله تعالى، على لسان يوسف، (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ) [يوسف: ٤٧] تحققت دلالة النصح والإرشاد بجلاء؛ فقوله (فذرؤه) نصح وإرشاد، بدليل الجملة الخبرية (تزرعون) التي تفيد الأمر، وأصل الكلام في (تزرعون) أزرعوا. وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد الأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه، والدليل على معنى الأمر، قوله تعالى (فذرؤه في سنبله) وقد خرج تعبيره بإرشاد جليل لأحوال التموين والإدخار، لمصلحة الأمة. (١) "فالأمر في (ذروه) نصح وإرشاد فيما ينبغي أن يفعلوه، إن لم يكن معتاداً لهم كما كان الزرع كذلك، ويحتمل بأن يكون (ذروه)، بمعنى (تذرؤه)، وأبرز في صورة الأمر؛ لأنه بإرشاده فكانه أومهم به" (٢).

ومن بديع معنى النصح والإرشاد ما جاء على لسان يوسف -عليه السلام- موجهاً خطابه للملك؛ بعد أن ظهرت براءته، وأراد الملك أن يستخلصه لنفسه، مبالغة في إكرامه، بعد تأويله رؤياه. قوله تعالى: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ) [يوسف: ٥٥] وفيه طلب يوسف من الملك ليتوصل إلى نشر العدل، ورفع الظلم، ويتوصل إلى دعوة أهل مصر إلى الإيمان بالله، وترك عبادة الأوثان، وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه، إذا دخل في أمر من أمور السلطان، أن يرفع منار الحق، ويهدم ما أمكنه من الباطل" (٣).

وأرى أن يوسف -عليه السلام- نصح الملك بأن يجعله مسؤولاً عن التموين؛ لأنه يعيش في مجتمع غير موحد بالله تعالى، ومن خلال منصبه الخطير الذي يمس حياة الناس اليومية يتمكن من دعوتهم إلى عقيدة التوحيد، إضافة إلى ما يتحلى به من أخلاق سامية، وكفاية عالية في إدارة اقتصاد البلاد.

والجدير ذكره؛ أن شخصية الملك اختلفت من مسرح الأحداث، لتحل محلها شخصية يوسف -عليه السلام-، مما سوغ دلالة الأمر للنصح والإرشاد.

ويتجلى غرض النصح والإرشاد على لسان يعقوب -عليه السلام- في قوله تعالى: (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ) [يوسف: ٦٧] فقد نصحهم بالدخول من أبواب متفرقة "خوفاً من أن يوجس أهل المدينة منهم خيفةً، من تجسس أو سرقة، فربما سجنوهم، أو رصدوا الأعين عليهم، كما أن دخولهم، متفرقين، فيه إخفاء كونهم جماعةً واحدة" (٤).

(١) الزمخشري: الكشاف، ٤٦٠/٢.

(٢) الألوسي: روح المعاني، ٤٤٤/١٢، وينظر: الأندلسي، أبو حيان: تفسير البحر المحيط، ٣١٤/٥.

(٣) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، دار الفكر - لبنان، ١٤٠٣، ١٩٨٣، ٣٥/٣.

(٤) الزمخشري: الكشاف، ٤٦٥/٢.

ويلحظ على البناء اللغوي في الآية اشتماله على أسلوبين طلبيين، الأول هو: النداء: (يا بني) الذي يفيد التودد والتحبب، وهذا ينسجم مع عاطفة الأبوة الحانية، التي لا تقصر في نصح الأبناء، وإرشادهم لما فيه خيرهم.

أما الأسلوب الثاني: النهي (لا تدخلوا) الذي انحرف عن دلالاته الأصلية لدلالة إضافية بلاغية، تتمثل في النصح والإرشاد أيضاً، ومن هنا نرى انتلاف الأساليب الإنشائية لغويا ودلاليا.

ومثل، ما سبق، قوله تعالى، على لسان يعقوب-عليه السلام- أيضاً، (يا بني اذهبوا فَتَحَسُّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ) [يوسف: ٨٧] ففي فعلي الأمر (اذهبوا)، (فتحسسوا)، انحرافٌ دلالي تمثل في النصح والإرشاد الذي أسداه يعقوب - عليه السلام - إلى بنيه بالذهاب إلى مصر، ليستعلموا أخبار يوسف، وأخيه بنيامين الذي استرق، " فتكلم معهم على سبيل التلطّف، والتحسّس، طلب الشيء بالحاسة، وهو شبيه بالسمع والبصر، ومن للتبعيض، والمعنى تحسسوا خيراً من أخبار يوسف " (١) وفي ذلك "رجاءٌ ونعمة الأمل" (٢). ويلحظ أيضاً اقتران الأمر بالنداء ودلالة ذلك إضافة إلى التقرب من أبنائه، والتحبب إليهم، أنّ ما بعد النداء من أمر في غاية الخطورة والأهمية، عليهم أن ينتبهوا إليه جيداً ليعملوا به.

ويكشف حرف الفاء الذي يفيد الترتيب والتعقيب، في كلمة (فتحسسوا) عن الحالة النفسية التي تتأب مشاعر يعقوب-عليه السلام- تجاه ولده يوسف؛ فمجرد الذهاب يبدأ التحسس لأخبار يوسف وخصّه بالذكر؛ لأنه سبب أرزائه، والذي ابيضت عيناه من الحزن على فقده، أما ذكر "بنيامين" فعبر به (أخيه) لأنه معروف المكان.

**٤- الاستعطاف:** من الأغراض التي يخرج إليها الأمر مقام الاستعطاف والاسترحام؛ فاللفظ أمر، والمعنى استرحام وإثارة الشفقة من المخاطب.

وقد ورد هذا المعنى في مواضع متفرقة في السورة الكريمة، وهذا الانحراف في الدلالة يتلاءم مع النماذج البشرية في السورة، ومن هذه النماذج يوسف-عليه السلام- الذي يشكل محور القصة، فقد طلب من الفتى الذي خرج من السجن أن يذكره عند الملك، كما في قوله تعالى: (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) [يوسف: ٤٢] " والمعنى اذكرْ عنده أنه مظلوم من جهة إخوته لما أخرجوه وباعوه، ثم أنه مظلوم في هذه الواقعة التي لأجلها حبس، فهذا هو المراد من الذكر" (٣).

(١) الرازي، الفخر: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية - طهران، ٢٤، ١٨/١٩٩١.

(٢) الدمشقي، الشيخ عبد الله، مؤمر تفسير سورة يوسف، ط ١، دار الفكر دمشق، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، ٢/١١١٣-١١١٤.

(٣) الرازي، الفخر: التفسير الكبير، ١٨/١٤٤٤.

"و(الرب) هنا السيد أي:- اذكر عند سيدك -ملك مصر- بما رأيت مني من معالي الأخلاق وطهارة الشيم، الدالة على بعدي مما رميت به" (١) "ولما استعان بالمخلوق طال مكثه في السجن، كذلك يجازي الحق -سبحانه- من يعلق قلبه بمخلوق" (٢)، كما أن فعل الأمر "اذكرني" يحمل دلالة الالتماس؛ فهو صاحبه في السجن.

وأرى أن طلب يوسف -عليه السلام- جاء بوحى من الله تعالى؛ لأن يوسف -عليه السلام- سجن ظلماً ودون تهمة ظاهرة، وأنه سيموت في السجن، دون أن يُسأل عنه، فلم تكن الدولة تبحث ملفات السجناء وتُسأل عنهم، وهذا ظلم "فاستعان يوسف بالفتى الناجي لتفريج كربته، وجعله بإذن الله وتقديره، سبباً للخلاص، وليتوصل إلى هداية الملك" (٣).

وتلمح دلالة الاستعطاف، المصحوبة بالأمل والرجاء، على لسان الأبناء، مخاطبين أباهم في قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَخَافِطُونَ) [يوسف: ٦٣] فالأبناء يستعطفون والدهم، لكي يرسل أخاهم بنيامين معهم، إلى مصر، للحصول على الطعام؛ لأن عزيز مصر - يوسف الذي لا يعرفونه بعد - طلب منهم "إثباتاً على صدقهم، من أنهم أبناء رجل حكيم صالح، وأنهم كانوا اثني عشر، فهلك منهم واحد وبقي الصغير - بنيامين - يتسلى به أبوه عن الهالك" (٤)، واقتران الفاء بفعل الأمر (أرسل) لها دلالة نفسية توحى بحرص الأبناء على تحقيق فعل الإرسال ليزول المانع من الحصول على الطعام. "وهو إرسال بنيامين معهم".

وانبعثت دلالة الاستعطاف من تقديم منع الكيل مع أن هذا المنع لم يتم بعد، وأنهم عادوا مزودين بالطعام، وأكثر مما يستحقون بدليل قوله تعالى على لسان يوسف: (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ) [يوسف: ٦٢] فلم يأخذ بضاعتهم، وأعادها إليهم، وأبقاها في رحالهم، تفضلاً عليهم ومبالغة في إكرامهم..

وتقديم المنع يكشف حالة نفسية مضطربة لدى الأبناء، للاعتناء بشأنه؛ لأن الظرف والزمن قحط وجفاف، وهم أهل عيال، ولا سبيل أمامهم إلا التذلل أمام والدهم، لتتحرك عاطفة الأبوة ويسمح لهم باصطحاب بنيامين.

وقد تتاغم النداء (يا أبانا) الدال على الاستعطاف، وبأداة النداء التي للبعيد مع أن المخاطب حاضر رافعاً لشأنه، وتعظيماً له - مع فعل الأمر الذي انحرفت دلالاته إلى دلالة الاستعطاف الممزوج بالرجاء؛ لأن شرط الحصول على الكيل إرسال بنيامين معهم.

(١) البقاعي: نظم الدرر، ط ١، ٨١/١٠.

(٢) القشيري، لطائف الاشارات، تع: إبراهيم بسيوني، ط ٢، مركز تحقيق التراث الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م، ١٨٦/٢.

(٣) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ٣١٠/٥.

(٤) الرازي، الفخر: التفسير الكبير، ١٦٧/١٨.

وجعل يوسف-عزيز مصر- أخاه بنيامين سبباً في حصول عشرة رجال أقوياء أشداء على الطعام والميرة، وبدل هذا على حفظ يوسف لأخيه وإكرامه له.

وتذكرنا جملة (وإننا له لحافظون) بالجملة المؤكدة التي قالوها لوالدهم عندما طلبوا منه أن يأمنهم على يوسف، وأفاد توكيد الجملة (بأن واللام) إزالة التردد والشك لدى يعقوب-عليه السلام-. والحق أنهم -الأبناء- صادقون هذه المرة في حفظ أخيهم؛ لأن حياتهم، الآن، معلقة بحضوره إلى عزيز مصر، أو لأن حالهم صنّحت وأصبحوا أكثر إيماناً من ذي قبل.

ويتجلى غرض الاستعطاف في قوله تعالى على لسان إخوة يوسف: (يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٧٨] فالأمر (خذ) جاء بعد " أن وصفوا أباهم ثلاث صفات وهي، حنان الأبوة، والشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره؛ لأنه كبير قومه، والهدف هو ترقيق قلب العزيز-يوسف عليه السلام- تجاه أبيهم<sup>(١)</sup>. واقتران حرف الفاء التي للترتيب والتعقيب مع فعل الأمر "خذ" له دلالة نفسية تبين حرص الأخوة على فداء بنيامين، إرضاء لوالدهم، وفي هذا إشارة إلى صلاح أمرهم مع والدهم.

ونظرة تأمل في السياق القرآني يكشف لنا أنه صنّ بالنداء (أيها العزيز) الدال على التعظيم، ثم بالجملة الخبرية المؤكدة (إن له أباً شيخاً كبيراً) وختامه بجملة خبرية مؤكدة أخرى (إننا نراك من المحسنين).

فالجملة الخبرية الأولى، دلت على التذلل والاستعطاف؛ وذلك لأن يوسف-عليه السلام- أخبر من قبل بأن لهم أباً، ولكنهم لم يريدوا إعلامه بذلك، ولكن أضافوا لأبيهم صفات جديدة ليرق يوسف لحالهم.

أما الجملة الخبرية الأخيرة فبالإضافة إلى اشتغالها على تأكيد الخبر، اشتملت على تعبير (من المحسنين)، وهذا تعبير فيه مزيد من التكريم، حيث ورد في السورة في قوله تعالى (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٢٢] كما ورد على لسان الفتيين (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٣٦] وفي قوله تعالى-أيضاً- (نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٥٦] وهذه الآيات اشتملت على لفظة (المحسنين) التي تدل على عظمة يوسف، وكونه من جنس (المحسنين)، وبالتالي استحق التمكن في الأرض.

وقد تجلّت دلالة الاستعطاف على لسان إخوة يوسف عندما خاطبوا العزيز-يوسف-، بعد أن عادوا مرة أخرى لسلميرة، ولبحث قضية أخيهم بنيامين، على أمل إطلاق سراحه، في قوله تعالى: (وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا) [يوسف: ٨٨]. فإن تتابع فعلي الأمر

(١) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ٣٣٠/٥، وينظر: الألويسي، روح المعاني ٣٢/١٣.

(فأوف) و (تصدق) له دلالة الأسلوبية التي تدل على التذلل والتمسك ليوسف-عليه السلام- وهذا- كما يقول الزمخشري " تمسك واضح بالتصدق عليهم"<sup>(١)</sup>.

وتحققت الدلالة الأسلوبية التي تدل على قمة التذلل والاستعطاف في قوله تعالى (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) [يوسف: ٩٧] فقول الأبناء لأبيهم (استغفر) اعتراف بالذنب الذي اقترفوه في حق أخيهم يوسف. وقد حققوا استعطافهم وتذللهم لأبيهم بالنداء (يا أبانا) الذي يوحي بالتذكير برابطة الأبوة، ثم توكيد الجملة (إنا كنا خاطئين)؛ أي: المتصفون بالخطيئة حقيقة، ولكثرة ذنوبهم لم يقولوا لأبيهم (استغفر الله لنا ذنوبنا)، ولكن يعقوب-عليه السلام- ودهم بالاستغفار (سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي) [يوسف: ٩٨].

ودهم يعقوب-عليه السلام- الاستغفار " ولم يجبههم على الوهلة ليدلهم على ما أقدموا عليه من سوء الفعلة؛ ولأن يوسف كان غائباً"<sup>(٢)</sup>.

ومن المقاصد الأسلوبية للأمر في سورة يوسف دلالة التخيير، كما في قوله تعالى: - (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً) [يوسف: ٩] فالأمر (اقتلوا يوسف أو اطرحوه) أفاد التخيير بين قتل يوسف أو نفيه، فالإخوة ذكروا ذلك " لما قوي الحسد وبلغ النهاية، فقالوا: - لا بد من تبيد يوسف عن أبيه، وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقتين: - القتل، أو التفرير إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه"<sup>(٣)</sup> "و أو هنا للتبويج، أن يفعلوا به أحد الأمرين"<sup>(٤)</sup>.

إن الأمر هنا كشف عن الحالة النفسية للإخوة تجاه أخيهم يوسف، وهي حالة توحى بالحسد والكره الشديد له، لا لذنوب اقترفه، وإنما، لأن والدهم يخصه بمزيد من الحنان القلبي. فلفظة (اقتلوا) جاءت في حالة الثوران النفسي المضطرب المملوء حقداً، ثم هدأت النفوس قليلاً فجاء الأمر بالإبعاد، ولكن إلى أرض مجهولة، منكورة غير معروفة.

وقد دل البناء اللغوي على سخر ما تشاوروا عليه من قتل يوسف أو نفيه فإسناد القتل أو الطرح إلى جماعتهم (اقتلوا) على طفل صغير لم يقترف ذنباً، هو في غاية الحمق وسوء الفعل.

ومن المعاني الإضافية البلاغية للأمر معنى الترغيب. وقد دل على هذا المقصد الأسلوبية قرينة السياق ومقتضى الحال؛ كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنَ أَبِيكُمْ) [يوسف: ٥٩] فيوسف -عزير مصر- يأمر إخوته الذين لا يعرفونه على سبيل الترغيب

<sup>(١)</sup> الزمخشري: الكشاف، ٤٧١/٢. وبنظر: الألويسي: روح المعاني ٤٤/١٣، وبنظر: البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر، ٢٠٥/١٠.

<sup>(٢)</sup> القشيري: لطائف الإشارات، ٢٠٨/٢.

<sup>(٣)</sup> الرازي، الفخر: التفسير الكبير، ٩٤/١٨.

<sup>(٤)</sup> الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ٢٨٤/٥.



بالإتيان بأخيه بنيامين الذي جاء على لسانه نكرةً دفعاً للشبهة؛ ولأنهم أخبروه من قبل بوجود أخ لهم من أبيهم يتسلى به عن الأخ الهالك.

وقد خاطبهم بأسلوب الإغراء والترغيب بعد أن جهّزهم بما يريدون من طعام وميرة، حتى يضمن إتيانهم بأخيه، وقد دلّ على ذلك الاستفهام التقريري بعد الطلب (الذاترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزّلين) [يوسف: ٥٩]. وقد أظهرت الآية حصافة يوسف كما تصوره القصة في تقابلات الجمل، فجملة الاستفهام (ألا ترون أني أوف الكيل) تدل على الإغراء التي تقابلها (فلا كيل لكم عندي) في التحذير، كما أن جملة (وأنا خير المنزلين) تدل على الترغيب والإغراء، تقابلها جملة النهي: (ولا تقربون) على لسان يوسف وفي الموقف ذاته في موقف التحذير والتخويف.

فيوسف -عليه السلام- يملك كل وسائل الترغيب والترهيب في تعامله مع الآخرين، بعدما كان من قبل ملقى في الجب "لا حول له ولا قوة" ولكن قدرة الله ورحمته قريبتان من عباده المحسنين: أمثال يوسف.

ويظهر على لسان أبناء يعقوب معنى الترغيب والإغراء في قوله تعالى: (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) [يوسف: ١٢].

فقد جاء الإغراء في الآية لتحصيل غرض دنيء، بدليل ابتدائهم بالاستفهام الإنكاري عن عدم إبتنائهم على أخيه يوسف، وأنهم نصحاء له، وحققوا ذلك بالجملة الخبرية لتأكيد صدق ادعائهم، والإكثار من التوكيد في دلالة الخداع، ثم أظهروا أنهم ما حرصوا إلا على فائدة أخيهم وأنهم حافظون له، وأكدوا ذلك أيضاً.

وتأكيد جملة (وإنا له لحافظون) لأن المخاطب يعقوب -عليه السلام- شكّ في ادعائهم بحفظ يوسف، فأرادوا إزالة هذا الشك والتردد بالتأكيد. ثم إن تقديم الجار والمجرور (له) يدل على الإعتناء بشأن يوسف خصوصاً.

ويأتي الأمر بهدف القيام بالفعل على سبيل الحث والترغيب، فاللفظ أمر، والمعنى حث، ويتجلى ذلك على لسان امرأة العزيز بعد أن غلقت الأبواب في قوله تعالى: (وقالت هيت لك) [يوسف: ٢٣] وهيت: اسم فعل أمر بمعنى أسرع، أو أقبل، وله دلالة في الحث والإقبال، وقد اختلف في أصل هذه الكلمة فقيل: "من اللغة الحورانية، وقيل العبرانية، وقيل السريانية. وهذا الأمر غير بدع في قصور الأشراف والطبقة الراقية، بأن تستمتع المرأة بعبدها، كما يستمتع الرجل بأمتة، ولذلك لم تتقدم إليه من قبل بترغيب، بل ابتدأته بالتمكين من نفسها"<sup>(١)</sup>.

(١) القرطبي، أبو عبد الله: الجامع لأحكام القرآن، نج: أبو اسحق إبراهيم طيفيش، ١٦٥/٩، وينظر: البحر المحيط، ٢٩٤/٥.

وقد جاء الأمر في الآية باستخدام اسم الفعل (هيت) وهي المرة الوحيدة التي يذكر فيها هذا اللفظ في القرآن الكريم.

ويظهر معنى الحث والاستعلام جلياً في قوله تعالى على لسان يوسف: ( وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّذِي قَطَعْتَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ) [يوسف: ٥٠] .

والآية جاءت في موقف طلب فيه الملك من رسول إحضار يوسف إليه، ولما جاءه الرسول، رفض يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته، فقال للرسول: - (ارجع، فأسأله)، وفي ذلك حث للملك على إعادة البحث بقضية يوسف لإظهار براءته للجميع، لكي يخرج من السجن، وهو مطمئن، " ولنلا يتسلق به الحاسدون إلى تقيح أمره عند الملك، وجاء السؤال للنسوة، دون تخصيص أو تعريض بامرأة العزيز -التي راودته- وهذا من أدبه- عليه السلام- فالسؤال مستعمل في تنبيه الملك لقضية هذا السجين، الذي سجن ظلماً" (١).

ويأتي الأمر لقصد المفاجأة، وتعجيل المسرة والبشارة في تتابع لقصد الإفهام، كما في قوله تعالى على لسان يوسف- عليه السلام- مخاطباً إخوته: ( اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ) [يوسف: ٩٣] فقد تتابع الأمر (اذهبوا، فآلقوه، وائتوني) في الآية، وهذا يدل على الحالة النفسية التي تضطرم بها أحشاء يوسف -عليه السلام- فهو ينتظر مجيء والده "ثانية بعد ثانية"؛ لأنه لم يره منذ أمد بعيد. " ولعل يوسف جعل قميصه علامة لأبيه على حياته، كما أن أمر الذهاب بالقميص بتعجيل المسرة لوالده و(القول) لقصد المفاجأة بالبشرى، وقد أدمج الأمر بالإتيان بأبيه في ضمن تبشيره إدماجاً بليغاً، إذ قال (يأت بصيراً، وائتوني بأهلكم أجمعين) لقصد صلة أرحام أهل عشيرته" (٢).

ودلّ العطف على الدلالات السابقة، كما دلّ على الحالة النفسية ليوسف- عليه السلام- فقد عطف بالفاء (فآلقوه) التي تفيد الترتيب والتعقيب دون تراخ أي: - بمجرد وصول الأخوة إلى أبيه يعقوب- عليه السلام- عليهم إلقاء القميص على عينيه، فيرتد بصيراً على الفوز بدليل قوله تعالى: - (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا) [يوسف: ٩٦].

أما الإتيان والمجيء فيستغرق زمناً طويلاً، وقد أسنده إليهم جميعاً، وهذا يدل على كرمه- عليه السلام- الذي قابل إساءة الإخوة له بالإحسان إليهم.

(١) الزعخشري، الكشاف ٢/٤٥٠-٤٥١.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتوير، ٥١/١٣.

وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام تتعلق بفعل الأمر (انتوني) فهذا الفعل له دلالة الأسلوبية التي تفضي في النهاية إلى معنى التشويق؛ وتخريج ذلك مبني على سياق الحال ومقتضى المقام. فقد ورد الأمر (انتوني) على لسان يوسف-عليه السلام- مرتين:- الأولى:- في قوله تعالى: (انتوني بأخ لكم من أبيكم) [يوسف: ٥٩] والثانية: في قوله تعالى (واتوني بأهلكم أجمعين) [يوسف: ٩٣]. وقد انسحبت دلالة الأمر في الآية (٥٩) على معنى الترغيب. هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار المخاطب (الإخوة) ولكن إذا أخذنا بالحسبان، الحالة النفسية ليوسف-عليه السلام- والهدف من ترغيبه إخوته، انبثقت دلالة التشويق للقاء أخيه.

أما الأمر في الآية (٩٣) فقلنا، إن تضافره مع فعلي الأمر (اذهبوا، فآلوه) أفاد دلالات البشارة وتعجيل المسرة والإفهام، فيما ينبغي أن يفعله الإخوة، عندما يعودون إلى والدهم. ومحصلة هذه الدلالات، تفضي إلى مقصد أسلوبى يتمثل بالتشويق للقاء يوسف بوالده وأهله. إذن معنى التشويق انبثق من مراعاة الحالة النفسية للأمر يوسف-عليه السلام-؛ لأن هذا المعنى النفسى الذاتى هو الذى جعل يوسف يرغب إخوته ويغريهم في الآية (٦٠)، ويعجل بمسرة والده. وتبشيره بحياته في الآية (٩٣).

فالمعنى الأول أفضى إلى معنى آخر، والمعنى الآخر أفضى-أيضاً- إلى دلالة أخرى جديدة. وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"<sup>(١)</sup>. ويتجلى في فعل الأمر (انتوني)-الذى ورد على لسان الملك مرتين-المقصد الأسلوبى الدال على التشويق، إذا أخذنا بعين الاعتبار مطابقة الأمر لمقتضى حال الملك. ويمكن بيان ذلك على النحو التالى:

قوله تعالى: (وقال الملك انتوني به) [يوسف: ٥٠] بعد أن أول روياء، جاءه الرسول ليخرجه من السجن، فرفض يوسف-عليه السلام- ذلك. حتى تثبت براءته فيما رُمي به، وحث الملك على إعادة فتح ملفه من جديد، أمام جميع الناس، وهذا ما حصل فعلاً إذ جمع الملك النسوة، فسألهن مقررأ إتهامهن بمراودة يوسف-عليه السلام- في الماضى " إذ راودتن يوسف عن نفسه " فاعترفت النسوة بنزاهة يوسف " ما علمنا عليه من سوء " فلفظ سوء المنكرة المسبوقة بـ " من " لتأكيد خلو يوسف من أي سوء كان. كما أقرت امرأة العزيز بمراودتها إياه: بقوله تعالى: (الآن حصنن الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) [يوسف: ٥١].

(١) ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ٢٦٣.

أي الآن فقط، ظهر الحق وبان بشأن المراودة، فأنا -وحدى- الذي قمت بمراودته، فاستعصم. فقدّمت الضمير "أنا" لتقوية حكم المراودة المسند إليها-وتقريره، وأكدت الجملة الخبرية المشتملة على صدق يوسف-عليه السلام- "وإنه لمن الصادقين".

أقول: هذا المشهد حصل أمام الملك، والمتهم البريء غائب، فعظم يوسف في نفسه، وتآقت نفسه إلى لقائه. فتشوق أكثر، وأعاد طلب الإتيان بيوسف بأقصى سرعة، عبر عنه القرآن بقوله تعالى (وقال الملك انتوني به)، وزيادة في قربه من نفسه، فكانه تجاوز عن اسمه لأنه أصبح أقرب إلى نفسه من ذكر الاسم، (أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) [يوسف: ٥٤]، ولم يقل "انتوني بيوسف" وكأنني أرى الملك يريد من رسوله إحضار يوسف قبل أن ينطق باسمه. وهذا بعينه منتهى الشوق والحنين للقاء يوسف.

إن شوق الملك ليوسف، في المرة الثانية، يزيد عن الأول؛ لأن الملك أراد في الإتيان الثاني أن يجعل يوسف خاصاً به؛ "لأن طهارة يوسف قد اتضحت له فأراد استصفاه لنفسه، فلما كلمه، وسمع بيانه رَفَعَ مَحَلَّهُ ومكانته، وضمنه بره وإحسانه"<sup>(١)</sup>، قال تعالى: (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) [يوسف: ٥٤].

قال القرطبي " لما ثبت للملك براءة يوسف عما نسب إليه، وتحققت في القصة أمانته، عظمت منزلته عنده، وفهم أيضاً صبره وجلده، فقال: "انتوني به استخلصه لنفسي" أما أولاً فقال: (انتوني به)"<sup>(٢)</sup>.

وقد انحرفت الدلالة النحوية للإضافة في قوله "لنفسى" إلى دلالة الاستحقاق، كأن الملك هو المستحق الوحيد لشخص يوسف-عليه السلام- الذي يتصف بصفات الجلال والكمال الخلقى والخلقى.

وخلاصة القول: إن الأمر الذي ورد على لسان الملك "انتوني" انحرف دلاليًا إلى مقصد أسلوبى يتمثل بالتشويق والإكرام لسيدنا يوسف-عليه السلام-. هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار الأبعاد النفسية للملك، وتعطشه لرؤية يوسف، بعد تعبيره الرؤيا أولاً، ثم صبره وجلده عندما رفض الخروج من السجن حتى تظهر براءته ثانياً.

أما إذا أخذنا بعين الاعتبار المخاطب "المأمور" وهو رسول الملك، فالأمر حقيقي دال على الوجوب؛ ولكن علينا أن لا ننسى أن دور الرسول في القصة دور هامشي، ولا يقاس عليه؛ لأنه يتمثل بالذهاب إلى يوسف، وحسب. قال البقاعي: في الآية (٥٤) "عظيم شوق وبيان كرامة"<sup>(٣)</sup>

(١) القشيري: لطائف الإشارات، ١٩٠/٢.

(٢) القرطبي: أبو عبد الله. الجامع لأحكام القرآن ٢١٠/٩-٢١١.

(٣) البقاعي: نظم الدرر ٢١٢/١٠.

وقيل: (استخلصه لنفسه) "فيها معنى الاختصاص أي، خاصاً بي لا يشاركني فيه أحد، أو هو كناية عن شدة اتصاله به والعمل معه"<sup>(١)</sup>.

وقد انحرف الأمر "قل" في السياق القرآني (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ) [يوسف: ١٠٨]. إلى غرض أسلوبى رفيع "هو" التذكير المصحوب بالاعتبار" من قصة يوسف؛ فبعد أن قصّ عليه القصة، ذكره في نهاية السورة بأخذ العبرة من قصة يوسف-عليه السلام-؛ لأنها دليل على صدق نبوته-صلى الله عليه وسلم-، وقد نزلت إيناساً له، وأن الله سينصره على قريش كما نصر يوسف على إخوته الذين كادوا يقتلونه، وأبعدوه عن والده ووطنه-حتى ملكه الله عرش مصر. فأصبح الأمر والناهي، فيها لكي يلتزم-محمد عليه السلام- أمر الدعوة إلى الله تعالى. والأمر في الآية هو الله تعالى، والمأمور: محمد-صلى الله عليه وسلم- وفي ذلك تكريم وتعظيم له-عليه الصلاة والسلام-.

فهو أشرف خلقه، وخاتم النبيين والمرسلين، وخطابه-عليه السلام- خطاب للأمة جميعاً في كل زمان ومكان؛ لأن أمر الدعوة إلى الله تعالى-سهممة المسلمين، وبالتالي "فَقُلْ" تنفيذ العموم.

<sup>(١)</sup> ابن عاشور: التحرير والتنوير ٧/١٣.

## المبحث الثاني - أسلوب النهي:

يُعرّف النهي بأنه " طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام وله صيغة واحدة، هي الفعل المضارع مع "لا" الناهية، وهي حقيقة في التحريم"<sup>(١)</sup>. قال ابن هشام: "من أوجه "لا" أن تكون موضوعة لطلب الترك، وتختص بالدخول على المضارع، وتقتضي جزمه واستقباله"<sup>(٢)</sup>. وتخرج صيغة النهي عن دلالتها الأصلية، "طلب الكف"، إلى معانٍ بلاغية ومقاصد أسلوبية، تستفاد من السياق، وقرائن الأحوال، ومن هذه المعاني والمقاصد في سورة يوسف-عليه السلام-.

١- **النصح والإرشاد:** وقد ورد في قوله تعالى: (قَالَ يَا بُنَيَّ لِمَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيُكَيِّدُوا لَكَ كَيْدًا) [يوسف: ٥]، فقد نهى يعقوب-عليه السلام- ابنه يوسف-عن قص رؤياه على إخوته على سبيل النصح والإرشاد المشتمل على التحذير، مع ثقته بأن هذا التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته؛ لأنه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الأخلاق"<sup>(٣)</sup>. وقد عرف يعقوب-عليه السلام- من رؤيا يوسف أن الله سيلغمه مبلغاً عظيماً، فخاف عليه حسدَ إخوته. "والنهي إشارة إجمالية من يعقوب-عليه السلام- إلى تعبير الرؤيا، وهذا لا يخفى على من له ذوق"<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظ أن السياق في الآية الكريمة دلّ على حرص يعقوب على ابنه؛ فابتدأ كلامه بهذا السنداء المتحبيب، الناتج عن تصغير ابن "بنّي"، وإضافة الرؤيا إلى يوسف "رؤياك" كأنه يشير له: أنت، وحدك، صاحب الرؤيا التي ستبلغك مبلغاً عظيماً، وتتكبر "كيداً" لإفادة تعظيمه. كل هذه الأدوات التعبيرية تضافرت مع النهي لتتسجم مع دلالة النصح والإرشاد والتحذير المتعدد من يعقوب لابنه يوسف-عليه السلام-.

وتعليل النهي "فيكيدوا لك كيداً" فيه بسط العذر للإخوة إضافة لمعنى التحذير والإرشاد. وفي قوله تعالى على لسان يعقوب-عليه السلام- قوله تعالى: (وَقَالَ يَا بُنَيَّ لِمَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ) [يوسف: ٦٧] جاء الخطاب موجهاً للأبناء، ويشتمل على دلالة أسلوبية "هي النصح والإرشاد"؛ لأن الأبناء كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة، والشارة هي اللباس والهيئة، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم، من بين الوفود، وأن يُشار إليهم بالأصابع، ويقال: هؤلاء أضياف الملك، فخاف أن يدخلوا

<sup>(١)</sup> ينظر: القروي: حلال الدين: شرح التلخيص ص ٩٠، السيوبي، حلال الدين: الانتان في علوم القرآن، دار الفكر ٨٢/٢.

<sup>(٢)</sup> ابن هشام، جمال الدين مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ٢٧٣/١.

<sup>(٣)</sup> الألوسي: روح المعاني ٣٧٣/١٢.

<sup>(٤)</sup> ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢١٣/١٢-٢١٤.

كوكبة واحدة، فبعانوا لجمالهم، فيصيبهم ما يسوؤهم، ولذلك لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس<sup>(١)</sup>.

ويظهر من سياق الآية أن النهي يشتمل على غرض " التحذير إضافة إلى غرض النصح والإرشاد"<sup>(٢)</sup>. وأرى أن هذا التحذير الأبوي الممزوج بالحنان والشفقة يتسق دلالياً مع غرض النصح والإرشاد؛ لأن سياق الآية دل على حزمة من الأساليب اللغوية التي تداخلت لتوليد هذا المدلول الوجداني في نفس يعقوب - عليه السلام - منها النداء (يا بني)، وكونهم حاضرين، للدلالة على أهمية النهي الذي سيلقى إليهم.

وتداخل غرض النصح والإرشاد مع والمواساة: على لسان يوسف - عليه السلام - عزيز مصر - كما ورد في قوله تعالى: (قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [يوسف: ٦٩]؛ فقد نصح يوسف العزيز أخاه بنيامين بعدم الحزن بسبب ما كان يلقاه من إخوته من الكيد، والأذى، والحسد" وقد خاطبه بقوله: " لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى، ولا تبال بكل ما تراه من المكروه، في تحبلي في أخذك منهم"<sup>(٣)</sup>.

ويظهر السياق القرآني التضايف والتناسق الدلالي بين الخبر والإنشاء، فقوله: "إني أنا أخوك جملة خبرية لتحقيق مضمون الجملة، "أنا أخوك، أفادت أن يوسف هو -خصوصاً- أخوه، فالضمير المنفصل "أنا" زاد في تأكيد الخبر وتقويته. بعد هذا التطمين والمواساة لبنيامين، يأتي الإنشاء المتمثل في النهي "فلا تبتئس" ليفيد الدلالة الأسلوبية "النصح والإرشاد" وهذه الدلالة تتسق مع طبيعة يوسف المحب للخير، والعدل.

وثمة ملمح أسلوبية جاء من حرف العطف "الفاء" الذي يفيد الترتيب والتعقيب، أي لأنني - وحدي - أنا أخوك -عزيز مصر- فلا تحزن لما مضى. من إساءاتهم المتكررة لك. وقد دل الخطاب "يعملون" على تكرار ظلم الإخوة لبنيامين، وأنه حدث متجدد مستمر. ودلت الواو على أن فعل الإيذاء لبنيامين - مسند لجميع الإخوة دون استثناء.

وأورد بعض المفسرين أن "النهي في قوله تعالى: (وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) [يوسف: ٨٧] للنصح والإرشاد"<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظ في الآية أن النهي حقيقي دال على التحريم، أي لا تياسوا من رحمة الله وفرجه، ولا تياسوا من حيّ معه روح الله التي وهبه؛ لأن اليأس من صفات الكفار .

(١) الرغشري: الكشاف ٤٦٠/٢ . الألويسي: روح المعاني ١٦/١٣.

(٢) أبو السعود: تفسير إرشاد العقل السليم، ١٦٧/٣.

(٣) الأندلسي: أبو حيان: البحر المحيط ٣٢٥/٥.

(٤) بنظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم ١٨٢/٣ . الألويسي: روح المعاني ٤٧/١٣.

كما دلّ النفي "لا ييأس" وهو أعم من النهي-على نفي اليأس عن المسلم وحصره بالقوم الكافرين.

**٢- المشورة:** وورد هذا الملمح الأسلوبى في قوله تعالى: (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ) [يوسف: ١٠]. فمن الممكن أن يكون النهي "لدلالة المشورة بدليل قوله" وألقوه، فهذا ما أشار به على إخوته<sup>(١)</sup> فالقائل "هو يهوذا" الذي كان أحسنهم- في يوسف- رأياً، وأشار إلى أن القتل عظيم؛ بدليل قوله: "إن كنتم فاعلين" وهذا أسلوب شرط، فيه محاولة من يهوذا لتخذيل إخوته عما اقترحوه من القتل والتغريب بأسلوب حكيم، إذ فوّض الأمر إليهم تعظيماً لهم، وحثراً من سوء ظنهم به<sup>(٢)</sup>. ويُلاحظ في النهي غرض بلاغى آخر هو استجلاب الشفقة على يوسف-عليه السلام- فالقائل: الذي جاء منكراً، يرفض قتل يوسف؛ ولكن اقترح حلاً وسطاً، وهو القاؤه في الجب المعروفة لجميع الناس. أملاً أن يلتقطه بعض السيارة، وهذا ما حصل فعلاً.

**٣- التهيب والتهديد والتخويف:** ووردت هذه الدلالات والمقاصد الأسلوبية في قوله تعالى:- (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ) [يوسف: ٦٠]، فقوله ولا تقربون نهى:- إذ توعدهم يوسف إن لم يأتوا بأخيهم من أبيهم "بنيامين" بحرمانهم من الميرة والطعام في المستقبل. وقد احتمل النهي أن يكون نفياً معناه النهي<sup>(٣)</sup>، فالمعنى الظاهر، للنهي هو التخويف والتهديد، أما المعنى العميق الآخر الذي قصده يوسف-عليه السلام- في نفسه كان نتيجة لإلهام ربانى، فما فعله هو بوحى من الله تعالى لتكميل أجر يعقوب-عليه السلام- في محنته<sup>(٤)</sup>. وفي قوله تعالى على لسان يوسف "ولا تقربون" يتضمن عدم الاكتيال، وفي هذا مزيد من التخويف والتهديد، لأن عدم القرب يعنى بالضرورة-عدم الحصول على الميرة مع حاجتهم الماسة إليها.

فالنهى عن القرب فيه سد للذريعة، وقطع للوسيلة. وهذا شبيه بقوله تعالى: مخاطباً آدم وحواء- عليهما السلام- (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) [البقرة: ٣٥]؛ فالنهى عن القرب يعنى بالضرورة عدم الأكل من الشجرة نفسها.

<sup>(١)</sup> ابن عاشور: محمد الطاهر: ٢٢٧/١٣. وينظر أبو السعود ١١٤/٣.

<sup>(٢)</sup> طنطاوى: محمد، نظرات في سورة يوسف، حريدة القدس. (عدد ١٠٦٤٣). ت ١٣/٤/١٩٩٩م.

<sup>(٣)</sup> الأندلسي: أبو حيان: البحر المحيط ٣١٩/٥.

<sup>(٤)</sup> الألوسى: روح المعاني ١١/١٣ بتصرف.



كما ورد على لسان يوسف وهو في السجن قوله تعالى: (أَمَرَ أَنَا تَعَبُّدُوا إِلَهَ إِيَّاهُ) [يوسف: ٤٠] وإن كان مضاداً للأمر من حيث اللفظ فهو موافق له من حيث المعنى؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وعبادة الله ضد عبادة غير الله.

ومعنى (أن لا تعبدوا إلا إياه) اعبدوه وخذوه، فيكون تفسيراً للأمر المطلق بفردي من أفراده. إذن (لا) على اعتبار أنها ناهية يفيد معنى بلاغياً هو "الأمر"، وإذا اعتبرت (لا) زائدة، وأن الفعل المضارع (منصوب بحذف النون) فإن الجملة الخبرية تنفيذ الأمر أيضاً، وهذا تتأسق في الدلالة البلاغية المنبثقة من السياق، وقد أفاد الأسلوب: القصر والاختصاص.

وقد صدر هذا النهي على لسان يوسف في سياق الدعوة إلى الله تعالى عندما قدم الدعوة إلى الله على تأويل رؤيا الفتيتين، وهذا من شأنه أن يؤتي ثماراً طيبة في مجال الدعوة إلى الله. وبعد استعراض أسلوب النهي، ودلالاته البلاغية في هذه السورة الكريمة يلحظ أن هذا الأسلوب، ورد على لسان سيدنا يعقوب - عليه السلام - واشتمل على دلالة أسلوبية هي النصيح والإرشاد؛ ولا غرابة في ذلك؛ فسيدنا يعقوب أب رحيم، ينصح أبناءه لما فيه خيرهم، وهو نبي مرسل كريم. والنصح والموعظة هما جوهر الدعوة إلى الله تعالى.

وفي هذا النصيح والإرشاد الأبوي موعظة للأبناء في كل زمان ومكان ليتعلموا أصول التربية السليمة القائمة على التعامل برفق مع الأبناء. وعدم مجاهرتهم بأخطائهم مباشرة، لأنه يولد العناد، والأحقاد.

أما النهي الذي ورد على لسان يوسف - عليه السلام - فجاء في المرة الأولى وهو في السجن، في معرض الدعوة إلى الله، والأمر بعبادته وحده والثانية بعد أن أصبح يوسف عزيزاً لمصر - يأمر وينهي، وقد اشتمل على دالتين متغايرتين اقتضاهما المقام والواقع. الموقف الأول: مع إخوته، فقد انحرف أسلوبياً إلى دلالة الترهيب والتخويف من حيث الظاهر، ولكنه تهديد من ورائه مقصد شرعي، وهو تحقيق أمر الله عز وجل - في المستقبل وهو لم يشمل آل يعقوب - لتتحقق رؤياه.

فلم يكن الترهيب والتهديد انتقاماً لنفسه، فنفس يوسف الزكية لم تكن تعرف الحقد ألبتة، وإنما المسامحة والود والنصيحة. وكل مشاهد القصة تشهد بكماله، وحسن أخلاقه، ونصيحته لكل من أراد النصيحة، وإحسانه، حتى مع الذين ظلموه.

أما النهي الآخر، فقد جاء مؤنساً، مطمئناً، ناصحاً، يشتمل على عاطفة الأخوة النقية الصادقة، فهو موجه إلى أخيه بنيامين الذي قرت عينه برويته، وهو بداية لم شمله مع أبيه وإخوته. أما النهي الذي جاء على لسان أحد الإخوة (يهوذا) فهو في مقام الطلب منهم بعدم قتل

يوسف أو تغريبه إلى مكان مجهول منكور، فأبدى لهم رأيا-يحقق فيه مرادهم، بإبعاد يوسف عن أبيه، وإبقاء حياة يوسف-عليه السلام- بإذن الله تعالى، وإن كان هذا النهي التشاوري مشتملاً على معنى الالتماس والرجاء.

## المبحث الثالث - أسلوب الاستفهام:

يعد الاستفهام في القرآن الكريم بعامه، وفي سورة يوسف بخاصة، نمطاً تعبيرياً متميزاً، وظاهرةً أسلوبيةً تستند إلى خصائص لغوية ينزاح إليها الاستفهام، لتحقيق أغراض بلاغية، غير المعنى الأصلي الذي وضع له، وهو طلب الفهم والاستخبار عن شيء مجهول<sup>(١)</sup>.

وعرض الجرجاني لمعاني الاستفهام وهو يعالج مسألة التقديم، والتأخير؛ وذلك لأن الفرق بين تقديم أحد جزئي الجملة على الآخر وتأخيره عنه، يظهر واضحاً في طريقة الاستفهام<sup>(٢)</sup>.

ومن المعاني البلاغية للاستفهام في السورة الكريمة:-

١- الإنكار: وهو غرض بلاغي رئيس، أشار إليه عبد القاهر بقوله: "واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى، أنه لينبه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرجع، ويعيب بالجواب"<sup>(٣)</sup>.

ودلالة الاستفهام على الإنكار دلالة بلاغية عامة، تتدرج تحتها معان بلاغية ومقاصد أسلوبية أخرى، كالتوبيخ، والتقريع، والتهديد، والتعجب، وغيرها....

ومن أساليب الاستفهام الإنكاري قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَكَ لَنَا مَا نَأْتَانَا عَلَى يَوْسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) [يوسف: ١١] جاءت هذه الآية على لسان الأبناء، لما عزموا على إلقاء يوسف في الجب، ليخل لهم وجه أبيهم، فابتدأوا بالنداء (يا أبانا) الذي يوحى بتذكير الوالد برابطة النسب القائمة على الحب الأبوي لإثارة الشفقة عنده. وحققوا مطلبهم بالاستفهام (مالك) المستعمل "في الإنكار على نفي الإلتئام"<sup>(٤)</sup>، "قد استنهموه لأمر ينبغي أن يكون الواقع على خلافه"<sup>(٥)</sup>.

ويتبين من السياق أن الاستفهام للإنكار الممزوج بالتعجب؛ وذلك لأن الأبناء وإن استكروا على أبيهم رفض الإلتئام؛ فإنهم تعجبوا من الاستمرار في عدم إلتئامهم على أخيهم يوسف.

ولما كان الأبناء حريصين الحرص كله على إقناع والدهم بالعدول عن استمراره بعدم الإلتئام، جاءوا بالجملة الخبرية المؤكدة (وإننا له لناصرين) التي من شأنها أن تزيل شكوكه وتردده؛ ليسمح لهم -أخيراً- بأخذ يوسف.

(١) للتعرف على مفهوم الاستفهام وأغراضه البلاغية ينظر: ابن فارس، أحمد: الصحاح، ٢٩٢-٢٩٧. القزويني: شرح التلخيص، ص ٨٣. الزركشي، بدر الدين: الرهان في علوم القرآن، ٢/٣٢٦ وما بعدها.

(٢) للاطلاع، ينظر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ١١١-١٢٣.

(٣) المصدر السابق، ١١٩-١٢٠.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٢/٢٢٧.

(٥) الشوكان: فتح القدير، ٩/٣.

"وأسلوب (مالك؟) يتضمن إنكار الواقع في النفي، ودلّ على "الأمر"، "فالأبناء أنكروا على أبيهم عدم الائتمان، وتعجبوا من ذلك، وطلبوا منه أن يأمنهم، وتعبوا في ترك ذلك"<sup>(١)</sup>.

وجاء على لسان يوسف-عليه السلام- وهو في السجن - قوله تعالى: (يا صاحبي السجن أَرَأَيْتَ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرَ أُمِّ اللَّئِيمِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [يوسف: ٣٩]. فقوله (أرباب) استفهام عدل عن معناه الأصلي إلى دلالة بلاغية هي الإنكار. فقد مهّد يوسف-عليه السلام- بدعوة الفتين اللذين طلبا منه تساويل ما رآياه، فأثر دعوتهما إلى عقيدة التوحيد، والإيمان بالله تعالى قبل أن يخبرهما، ولم يصرح لهما ببطلان عقيدتهما، فجاء بالاستفهام؛ لأنه يثير في نفسيهما التفكير، ويدفعهما إلى الاعتراف ببطلان الأرباب، الفارغة من معانيها، وبالمقابل يدعوها إلى الإيمان بالله الواحد القهار.

وجاء الاستفهام في سياق النداء (يا صاحبي السجن)، الدال على التودد والمحبة؛ لكي لا تتفر طباعهما من مفاجأة بطلان ما ألفيا عليه من عبادة الأوثان.

وتكونت جملة الاستفهام من (الهمزة + أرباب "مبتدأ" + متفرون "صفة للأرباب" + خير "خبر" + أم المتصلة + لفظ الجلالة الله + الواحد القهار "صفتان لله تعالى").  
ومناط الإنكار والشك هو ما جاء بعد الهمزة، وهي الأرباب المتفرقة، التي لا خيرية فيها، وهي غير جذيرة بالعبادة.

"وقد دفع الشك في أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك. أما إذا كان المعبود واحداً ارتفع هذا الشك، وحصل اليقين، في أنه لا يستحق العبادة إلا هو"<sup>(٢)</sup>.

ويهدف الاستفهام على لسان يوسف -عليه السلام إلى قلب معتقدهما الفاسد، فدلّ "الإنكار على التوبيخ"<sup>(٣)</sup> أيضاً لهذا المعتقد.

وامتزجت دلالة الإنكار في (أرباب) مع دلالة التقرير في قوله: - (أم الله الواحد القهار)؛ لأنه بمعنى طلب الاعتراف، والحكم بين شيئين لا يخفى خيرهما على العاقل لما بينهما من بون شاسع<sup>(٤)</sup>، وفي أساليب الهمزة وأم المتصلة على ما يدل على التفضيل، يكون مع تقرير الربوبية لله عز وجل- وتعظيمه، توبيخ لمن أشرك به.

وقد جاء الاستفهام على لسان يعقوب -عليه السلام- في قوله تعالى: - (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِنْ كُنَّا آمِنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) [يوسف: ٦٤]. فقوله (هل آمنكم) استفهام انحراف وضعه في النظام النحوي إلى غرض أسلوبية عميق، يتمثل بالإنكار الإبطالي، الذي فيه معنى النفي أي: "لا

(١) فودة، عبد العليم السيد: أساليب الاستفهام في القرآن، ص ٤٠٥.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ١٤٠/١٨.

(٣) الألويسي: روح المعاني ٤٣٤/١٢.

(٤) الأندلسي: البحر المحيط ٣٠٩/٥.

أمّنكم عليه؛ لأنكم قلتم في يوسف (وإنّا له لحافظون) كما تقولون في أخيه، ثم خنتم فما يؤمنني من مثل ذلك<sup>(١)</sup>.

ومثل الاستفهام الإنكاري، الدال على النفي، العقاب النفسي الذي عاقبه يعقوب لأبنائه، فلو قال لهم: (لا أمّنكم عليه) بالنفي الصريح، لم يفكروا، ولم يراجعوا أنفسهم، ليتذكروا سوء صنيعهم بأخيهم يوسف من قبل.

أما الاستفهام؛ فقد ضيق عليهم نفسياً؛ لأنه واجههم بسوء فعلتهم به، دون مباشرة. ومن هنا تجلت بلاغة الاستفهام على لسان يعقوب - عليه السلام -.

وفي قوله تعالى: - (يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا) [يوسف: ٦٥] يجوز أن تكون (ما) حرف نفي، أي: - لا نبغي ويجوز اعتبارها استفهامية. وعلى اعتبار أنها استفهامية؛ تكون قد انحرفت عن دلالتها الأصلية إلى دلالة أسلوبية تتناسب والموقف الذي جاءت فيه وهي الإنكار، "بتزليل المخاطب منزلة من يتطلب منهم تحصيل بغية، فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى أي: ماذا نطلب بعد هذا؟"<sup>(٢)</sup>.

ولما كان الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، فإن دلالة (ما) على الإنكار أو اعتبارها حرف، نفي لا يخل بالمعنى، لكن اعتبارها استفهامية يعمق دلالة الإنكار ويجعلها أكثر تأثيراً في المتلقي. كما يكشف سياق الاستفهام المتصدر بالنداء الموحى بتذكير الأب بما ينبغي أن يكون عليه من حنان وشفقة (يا أبانا)، ثم الإقرار من جانب الأبناء بتفضل عزيز مصر عليهم، في وقت يعانون فيه والمنطقة، من حالة جذب وجفاف. وبالتالي كانوا حريصين على إقناع والدهم بإرسال بنيامين معهم، بناءً على طلب من عزيز مصر - يوسف عليه السلام - هذه الترائن اللفظية والحالية تدل على تغيير في نفوس الأبناء. وعليه؛ فإن الاستفهام يحمل معنى التعجب من رفض يعقوب - عليه السلام - إرسال بنيامين معهم؛ بالرغم من إكرام العزيز لهم أكثر من غيرهم، مع حاجتهم لاستمرار هذا الإكرام.

ومن الاستفهام الذي حمل دلالات متنوعة ومعاني بلاغية اقتضاها المقام قوله تعالى على لسان يوسف: (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) [يوسف: ٨٩] ذهب الزمخشري إلى القول: - "بأن يوسف كَلِمَ إخوته مستهتماً عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: - هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه، فلذلك أقدمتم عليه، يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه؛ لأن علم القبح يدعو إلى الاستباحت،

(١) الزمخشري: الكشاف ٤٥٨/٢، وينظر حسان، ممام: البيان في روائع القرآن، ص ٧٣.

(٢) الزمخشري: الكشاف ٤٥٨/٢، وينظر أبو السعود، ١٦٥/٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ١٧/١٣-١٨.

والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقةً عليهم وتنصيحاً لهم في الدين لا معاتباً وتثريباً<sup>(١)</sup>. وقال الفخر الرازي: إن يوسف قال لإخوته: "ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف، وما أقيح ما أقدمتم عليه"<sup>(٢)</sup>، وقيل: "إن الاستفهام تذكيرٌ وتوبيخ"<sup>(٣)</sup> واقتصر بعضهم على دلالة التذكير<sup>(٤)</sup>.

ونظرة تأمل في السياق القرآني، يظهر بجلاء، أن الاستفهام مشتملٌ على المعاني البلاغية الأنفة الذكر، فقول يوسف: (هل علمتم) يدل على أن (هل) بمعنى قد التي تفيد التحقيق. وهو توبيخٌ وتكريخٌ لإخوته على ما يعلمونه محققاً في أفعالهم مع يوسف -عليه السلام- وأخيه بنيامين. أي:- أفعالهم الذميمة بقرينة التوبيخ، وهي بحق يوسف -عليه السلام- واضحة، أما بالنسبة إلى بنيامين فهو إهانتهم له، ومراد يوسف تعظيم الواقعة، وتذكيرهم بها؛ لأنها حدثت جلالاً، حصل قبل زمن طويل. لكن يوسف الكريم اعتذر لهم بقوله (إذ أنتم جاهلون) على سبيل التأنيس وبسط العذر.

ومهما يكن، فإن كثرة المقاصد الأسلوبية للاستفهام؛ جاءت لتلاءم شخصية يوسف -عليه السلام- الذي يستطيع فعل أي شيء، لكن حلمه النابع من إيمانه بالله، دفعه إلى مسامحة إخوته، والإعتذار لهم في حال كونهم جاهلين، وهذه تتناسب ورسالة النبي والرسول التي تقوم على تذكير العباد، والنصح لهم، والعتو عنهم عند المقدرة.

وإذا جاء التوفيق بين موقف يوسف مع إخوته، وموقف الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- عندما فتح مكة، وقال لأهلها:- (ما ترون أنني فاعلٌ بكم؟ قالوا: "أخ كريم وابن أخ كريم"، فقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء). ولا ننسى أيضاً أن سورة يوسف نزلت تأنيساً للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وتستفرد من دلالة الإنكار الأساسية دلالتا، التوبيخ والتهديد كما في قوله تعالى: (أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله) [يوسف: ١٠٧] فقد دخلت همزة الاستفهام على فعل الأمن فأفادت الإنكار مع التوبيخ والتهديد، فاستمرار الكفار في العصيان والكنف والضلال، كأنهم يعتقدون أنهم في أمنٍ من عذاب الله، وأنه بعيدٌ عنهم، وما هو ببعيد حقاً- وهذا يوجب توبيخهم وتهديدهم بالعذاب مع التعجب من إصرارهم على ذلك.

ومعنى (غاشية): "الصواعق التي تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم"<sup>(٥)</sup> وتكثيرها لإفادة النوعية والتعظيم، أي: نوع من العذاب يكون عظيماً لأنه من عند الله.

(١) الرعشري: الكشاف، ٤٧٢/٢.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ٢٠٣/١٨.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٥٥/٩.

(٤) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٣٤٠/٣، والسيوطي: الاتقان ٨٠/٢.

(٥) الرعشري: الكشاف، ٤٩٧/٢.

والاستفهام الإنكاري متداخلاً مع أغراض التوبيخ والتهديد والتفريع في قوله تعالى: - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) [يوسف: ١٠٩] فالاستفهام (أفلم يسيروا) لمن ساروا في الأرض فرأوا عاقبة المكذبين، مثل عاد وثمود، ولم يتعظوا لما جرى عليهم، فهذا تحذير لمن أُنذروهم رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- وتوبيخ لهم، وفي الوقت نفسه تسلية له -عليه السلام.

(وكيف): استفهام معلق لفعل النظر عن مفعوله، وهذا التفريع افتراض بالوعيد والتهديد، إضافة إلى التوبيخ والتفريع لهؤلاء الكفار الذين يصرون على عناد النبي -صلى الله عليه وسلم-. ويرى عبد العليم فودة: - "أن أسلوب (كيف كان عاقبة) إذا جاء بعد فعل النظر كثرت دلالاته على التعجب والوعيد"<sup>(١)</sup>.

وحقق الاستفهام في قوله تعالى: (وَلَذَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [يوسف: ١٠٩] دلالاتي الإنكار والتبكي؛ لأن سير الاعتبار لا يحتاج إلى أكثر من العقل، فجاء قوله منكرًا عليهم ميكتاً لهم (أفلا تعقلون) أي فیتبعوا الداعي إلى هذا السبيل الأقوم.

وقد تفرعت من الاستفهام دلالات "التفريع والتوبيخ والتحذير"<sup>(٢)</sup>؛ لأن عدم الاعتبار يوجب توبيخهم، وما في الأرض من آثار للأقوام التي أهلها الله بسبب ظلمها، وكفرها، تحذير لكل من يستمر في ضلاله وكفره.

ويحمل الاستفهام في ثناياه، إضافة إلى المعاني البلاغية السابقة، معنى بلاغي آخر "هو" "الأمير" بالتعقل، أي: - اعقلوا بأخذ العبرة؛ لما جرى للأقوام السابقة التي عنت عن أمر ربها، فاستحققت العذاب فأضحت أطلالاً مقفرة خاوية على عروشها.

٢- التقرير: - وهو من الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام في سورة يوسف -عليه السلام- ويقصد به: - "حملك المخاطب على الإقرار والإعتراف بأمر قد استقر عنده"<sup>(٣)</sup>. وحمل المخاطب على الاعتراف بالأمر بطريق الاستفهام أدل على الإلزام، وأوقع في النفس.

وقد تحقق هذا الغرض البلاغي، في السورة الكريمة، في مواضع عدة منها: - قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: - (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [يوسف: ٢٥] "فيجوز أن تكون (ما) نافية: ليس جزاؤه إلا السجن. ويجوز أن تكون للاستفهام بمعنى: - أي شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: - من في الدار إلا زيد"<sup>(٤)</sup>. ونظرة تأمل في سياق الاستفهام

(١) فودة، عبد العليم: أساليب الاستفهام في القرآن، ١٥٣-١٥٤.

(٢) الألويسي: روح المعاني ٦٥/١٣. أبو حيان، البحر المحيط ٣٤٦/٥.

(٣) الزركشي: البرهان، ٣٣١/٢، السيوطي: الاتقان ٧٩/٢.

(٤) الزحمرشي: الكشف: ٤٣٣/٢، الرازي: التفسير الكبير ١٢٢/١٨.

يظهر بجلاء دلالاته على التقرير؛ لأن المرأة لم تطلب الجزاء، وإنما قررت، فقد بادرت إلى تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة، وجمعت مع ذلك تخويف يوسف، ليعرف قدرتها على إيدائه. فقولها: - (من أراد) فيه تهويلٌ للأمر ومبالغة في التخويف. وقولها (بأهلك)، "غاية في تهيج الحمية لدى زوجها، وتذكير بالأنفة"<sup>(١)</sup>. وفي هذا تعظيمٌ للخطب وإغراءً للعزیز على تحقيق العقوبة. وأسلوب الحصر (إلا أن يسجن أو عذاب الأليم)،<sup>(٢)</sup> يدل على حرص المرأة على يوسف وحياته، لنلا يفكر العزیز بقتله، وهذا في غاية الدهاء؛ لأنها تريد أن يظل يوسف سالماً.

وحقق الاستفهام غرض التقرير المتناغم مع غرضي التنبيه والحث، في قوله تعالى: (فَأَسْأَلُهُ مَا بِالْأَنْسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) [يوسف: ٥٠]. ورد الاستفهام على لسان يوسف عندما رفض الخروج من السجن، حتى تظهر براءته فحَثَّ الملك ونبيهه - عن طريق رسوله - على التفتيش والتحقيق مع النسوة، لتبين للملك براءته بياناً مكشوفاً "ومن كرم يوسف -عليه السلام- أن لم يذكر زوجة العزیز مع ما صنعت به، وإنما جعل السؤال بحق النسوة اللاتي قطعن أيديهن"<sup>(٣)</sup> وجاء الاستفهام بعد فعل الأمر الدال على الحث والتنبيه (فَسْأَلُهُ) ليدل على نفسية يوسف المصرة على إظهار براءتها، ويلحظ أن يوسف لم يطلب ما سأله؛ لأنه عارف به، ولكنه جاء به لتتقرر براءته، باعتراف النسوة الكامل.

واتسقت دلالة التقرير في قوله تعالى: - (مَا خَطَبُكُنْ إِذْ رَاوَدْتُنْ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ) [يوسف: ٥١] التي جاءت على لسان الملك، مع الدلالة التقريرية التي جاءت على لسان يوسف آنفاً ( ما بال؟). فالملك "نزه جانب يوسف بقوله: - (إذ راودتن يوسف عن نفسه)، وفيه تبرئة ليوسف"<sup>(٤)</sup>؛ لأن الملك "يقرر اتهامهن، ويشير إلى أمرٍ لهن جَلَل، أو شأنٍ لهن خطير، والخطب: - الأمر الجلل، ويبدو أن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجهن، وهو المعتاد وفي مثل هذه الأحوال؛ ليكون الملك على بينة من الأمر، وظروفه قبل الخوض فيه"<sup>(٥)</sup>.

ونظرة تأمل في سياق الاستفهام؛ تدل على التناسق بين اسمي الاستفهام "ما" عند الملك وعند يوسف؛ وهذا يدل على نوايا الملك الجادة في إظهار براءة يوسف. "ما" تتطلب من الملك الحصول من النسوة على الاعتراف الكامل للأمر المسؤول عنه، وهذا ينسجم مع "ما" المبهمة الدالة

(١) القشيري: لطائف الإشارات ٢/١٨.

(٢) العذاب الأليم: الضرب بالسياط. ينظر، البحر المحيط ٥/٢٩٧.

(٣) الأندلسي: البحر المحيط ٥/٣٤٦.

(٤) المصدر السابق، ٥/٣١٦.

(٥) قطب. سيد: في ظلال القرآن، ٤/١٩٩٥.



على العموم. ولفظة "خطبكن" لها إشعاعات أسلوبية تتمثل بتعظيم الملك لما اقترفته النسوة، بحق يوسف من المراودة والاثام الذي أدى إلى سجنه ظلماً.

ودل الظرف "إذ" وهو ظرف مبني لما مضى من الزمان " على تقرير الاتهام والمراودة، ولا يريد الملك من النسوة إلا مجرد الاعتراف بسوء صنيعهن بيوسف، وهذا ما حصل فعلاً إذ جاء على ألسنتهن جميعاً: (قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء) فهي جملة خبرية تفيد التعجب الشديد من نزاهته - عليه السلام - "فهو تعجب من قدرة الله على خلق عفيف مثله"<sup>(١)</sup>.

وتجلى الاستفهام التقريري على لسان يوسف في قوله تعالى :- (الَّذِينَ تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) [يوسف: ٥٩] فجاء الاستفهام أثناء الحوار الذي جرى بين يوسف وإخوته -الذين لا يعرفونه - وهذا ما يوميء بالمباشرة، وعمق التأثير. وتقوم الجملة الاستفهامية على النظام اللغوي التالي :-

ألا همزة الاستفهام الداخلة على حرف النفي + ترون (فعل مضارع وفاعل) + أني أوفي الكيل (مصدر مؤول في محل نصب معمول ترون) + وأنا خير المنزلين (جملة في محل نصب حال).

فالاستفهام غُدلٌ عن معناه الأصلي إلى غرض بلاغي رفيع، يتمثل بالتقرير. وقد أدى دخول همزة الاستفهام على الكلام المنفي إلى إثباته، فيكون الجواب بـ (بلى)، وفي ذلك زيادة في تقرير الإيفاء وتحقيقه؛ لأن الإخوة يعلمون التجهيز للتبنيه على أن ذلك عادة مستمرة عند يوسف. وامتزج مقصد التقرير مع غرض الترغيب؛ لكي يعودوا إليه، لأن يوسف علم أنهم مضطرون للعودة مرة أخرى، لعدم كفاية الميرة التي امتازوا بها لعائلة ذات عدد من الناس مثلهم، كما دل عليه قولهم بعد:- (ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) [يوسف: ٦٥] ودلت جملة الحال على غاية الاحسان في إكرام إخوته لترغيبهم بالإتيان ببنيامين.

وامتزج الداليتين (التقرير والترغيب) يتناغم مع الحالة النفسية ليوسف - عليه السلام - الذي يتشوق - أيما تشوق - لرؤية أخيه بنيامين؛ لأنه مقدمة لأمرٍ عظيم، قدره الله العليم الحكيم، يتمثل بلم شمل آل يعقوب، وتحقيق رؤياه التي رآها مذ كان صغيراً.

ويظهر في قوله تعالى :- (قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) [يوسف: ٨٠] معنى التقرير الذي جاء على لسان كبير الإخوة، قيل:- "كبيرهم بالسن (روبييل)، وقيل رئيسهم (شمعون)، وقيل كبيرهم في العقل والرأي (يهودا)،

(١) الألوسي: روح المعاني: ٤٤٨/١٢.

ومعناه: - ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً، وتفريطكم من قبل في حق يوسف؛ من الجناية العظيمة... " (١).

فالاستفهام تقرير لهم بما يعرفونه مع قرب الزمان، ليشدد توجههم في بذل الجهد، وفي الخلاص من غضب أبيهم. وقد يكون الأخ الكبير قد قصد "التقرير المستعمل في التذكير بعدم اطمئنان أبيهم. بحفظهم لابنه بنيامين" (٢).

ويظهر البناء اللغوي الذي تشكلت منه جملة الاستفهام إنحرافه الأسلوبى إلى دلالات التقرير، والإنكار، والتذكير، ذلك أن الإخوة يعلمون أخذ الميثاق العظيم عليهم من أبيهم. ولكنهم عندما عزموا على العودة دون أخيهم بنيامين أنكر عليهم هذا الفعل، وأراد أن يقنعهم بالبقاء في مصر، فحقق ذلك بالجملة الخبرية المؤكدة (أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً) كما جاءت على لسانه كلمة (موثقاً) منكرة لتعظيم العهد؛ لأنه مقطوع مع الله تعالى العظيم، وفي هذا تخويف للإخوة. وقوله (من قبل ما فرطتم في يوسف) ليزكروهم بأعمالهم الذميمة بحق أخيهم يوسف قديماً.

إن الحالة النفسية للأخ الكبير اقتضت انبعاث الدلالات المختلفة المتناقضة لتتلاءم مع حالة عدم الإستقرار والتناقض للإخوة بعامة والأخ الكبير بخاصة.

وتتجلى البلاغة القرآنية، والمقاصد الأسلوبية للاستفهام في قوله تعالى -على لسان الإخوة بعدما كشف لهم يوسف عن نفسه عن طريق تذكيرهم بسوء فعلهم بقوله: (هل علمتم) - (قَالُوا أَنْتَكَ لَأَنْتَ يُونُسُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي) [يوسف: ٩٠] قال الزمخشري: - "هذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع فهو يكرر الاستنابات، وقد عرفوه عندما تبسم بثناياه، وكانت كاللؤلؤ المنظوم" (٣).

ويفهم من كلام الزمخشري، أن الاستفهام لدلالة التقرير المصحوبة بالاستغراب والتعجب. وأضاف الألوسي: " دلالة الاستبعاد؛ لأن الإخوة استبعدوا أن يكون العزيز يوسف، أو يوسف عزيزاً " (٤).

فالإخوة قد سمعوا يوسف يقول لهم من قبل: (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) [يوسف: ٨٩]، ورأوا فيه علامات تميزه وهو صغير، فجرى في نفوسهم أنه يوسف، فسألوه مقررين على وجه التأكيد والتحقيق، بدليل أدوات التوكيد "إن، واللام".

(١) الزمخشري: الكشاف، ٤٦٦/٢.

(٢) البقاعي: نظم الدرر، ١٩٢/١٠. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٣٩/١٣.

(٣) الزمخشري: الكشاف، ٤٧٣/٢، وبنظر أبو السعود، ١٨٤/٣.

(٤) الألوسي: روح المعاني ٤٦/١٣.

إن؛ الدلالات البلاغية المنبثقة من الاستفهام متناسبة مع الموقف وسياق الحال، والحالة النفسية والشعورية للإخوة؛ فمنهم من تعجب، ومنهم من استغرب، ومنهم من استبعد، أن يكون الأخ الصغير الذي ألقى في الجب، قد وصل إلى أعلى مراتب العزة والرفعة.

ونظرة تأمل بين الاستفهام الذي جاء على لسان يوسف (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه)، وبين جوابه على الاستفهام الذي جاء على لسان إخوته (قال أنا يوسف وهذا أخي)، يظهر أن ضم بنيامين من قبل يوسف إلى نفسه يوحي بالرباط الوجداني بينهما، لأن اعتداء الإخوة قد وقع على كليهما، لأن أمهما مختلفة. فجوابه -عليه السلام- (أنا يوسف وهذا أخي) في غاية البلاغة فهو بيان لما سألوا عنه، وإن كان بنيامين معلوماً عندهم. (وهذا أخي) أي: أن بنيامين هو المستحق لأن يكون أخاً لي لا أنتم.

وفي قوله تعالى على لسان يعقوب -عليه السلام- (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ تَعْلَمُونَ) [يوسف: ٩٦]، جاء الاستفهام بعدما تحقق أمر الله بظهور يوسف، وتمكينه في أرض مصر. " وهو خطاب لمن كان حاضراً عنده -عليه السلام- عندما قال: - إني لأجد ريح يوسف، وقيل خطاب لبنيه القادمين، أي: ألم أقل لكم لا تياسوا من رحمة الله، وهذا هو الأنسب بقوله تعالى: - (إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [يوسف: ٩٦] " (١).

فدخول الاستفهام على كلام منفي أحالة إلى الإثبات، فيكون الجواب بـ (بلى)، وهذا مناط التقرير. وكل تقديم شبه الجملة (لكم) على معنى الاختصاص، أي: ألم أقل لكم خصوصاً مرات عديدة، وأذكر لكم بأني أعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف، وأن الله سيجمع بيننا يقيناً. تناسقت دلالة التقرير المصحوبة بالتذكير مع شخصية يعقوب -عليه السلام- النبي الذي يثق بالله -عز وجل- وأنه لا راد لقضائه، وأنه لا يضيع أجر المحسنين، أمثال يوسف -عليه السلام- وفي هذا توظيف أسلوب الدعوة إلى الله الذي يقوم على اللين، والصبر، واليقين، بنصرة الله عباده المتقين.

ولعله يظهر -مما سبق- أن الاستفهام حقق مقاصده الأسلوبية بما يتلاءم والنماذج البشرية في السورة الكريمة، حسب ما يقتضيه السياق النظمي.

(١) البقاعي: نظم الدرر، ٢١٤/١٠، الألوحي: روح المعاني، ٥٣/١٣.

## المبحث الرابع - أسلوب النداء:

ويقصد به "طلب إقبال المخاطب بحرف نائب مناب فعل (أدعو)"<sup>(١)</sup> ليصغى المدعو إلى أمر ذي بال.

ولم يرد من حروف النداء في النظم القرآني سوى (يا) خاصة، والغاية من النداء القرآني، أن ينتسبه المنادي، فيصغى إلى ما يلقي إليه؛ "لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامر ونواه وعظات وزواجر ووعد ووعيد، ونحو ذلك مما أنطق الله به كتابه، أمور عظام، ومعان ينبغي أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها"<sup>(٢)</sup>.

وإذا ما استعرضنا النداء في سورة يوسف، فإننا نرى؛ أن الذي وليه في الآيات الكريمة، إما أمر كقوله تعالى: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) [يوسف: ٢٩]. أو جملة خبرية طلبية مثل (يا أبتِ إِنِّي رَأَيْتُ) [يوسف: ٤]، (يا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقٌ) [يوسف: ٨١] أو استفهام (يا أَبَانَا مَا نَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) [يوسف: ١١].

فكل هذه الأمور ذات بال، ينبغي أن ينتسب لها المخاطب، ولذا سبقت بالنداء تهيئة، وإيقاظاً للمخاطب، ليصغى إلى تلك الأمور المهمة، فيقف عليها، ويدرك المراد منها.

والأصل في النداء: أن يرد تنديهاً للمنادي، لیسع ما يلقي إليه، بعد النداء من أمر، أو نهي ليعمل بمقتضاه، وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي ليفيد معاني بلاغية عدة منها:-

١- الدعاء: وقد ورد هذا المعنى في النظم القرآني عند نداء الرب - عز وجل - كما في قوله تعالى - على لسان يوسف - عليه السلام - مناجياً ربه (رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) [يوسف: ٣٣] والموضع الثاني عندما تحققت رؤياه، وملكه الله عرش مصر - (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) [يوسف: ١٠١] فالموقف موقف تضرع وابتهاال، وقرب، ولعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه " ونصبت (فاطر) على اضمار حرف النداء، وفيها دلالة التعظيم"<sup>(٣)</sup>.

٢- اظهار الطواعية والبر: وجاءت هذه الدلالة، في قوله تعالى على لسان يوسف في موضعين: الأول - في قوله تعالى: (يا أبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) [يوسف: ٤] والموضع الثاني - في قوله تعالى: (يا أبتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ) [يوسف: ١٠٠] فقد أظهر يوسف في نداء أبيه الطواعية والبر، والتسببه على محل الشفقة، بطبع الأبوة التي يمتليء

(١) للتعرف على أسلوب النداء ومعانيه البلاغية، بنظر: القزويني: شرح التلخيص، ص ٩٠، الايضاح، ٩١/٣، السيوطي: الاتقان، ٨٢/٢.

(٢) السيوطي: الاتقان ٨٢/٢.

(٣) الأندلسي: البحر المحيط، ٣٠٦/٥، ٣٤٣، الأكرسي: روح المعاني ٤٢٥/١٢، ٥٣/١٣.

فؤادها بالحنان والإشفاق، خاطبه أبوه بقوله (يا بني) وجاء هذا النداء، وهو طفل صغير، والموضع الثاني صَدَرَ من يوسف وهو عزيز مصر، وهذا يدل على أن شخصية يوسف -عليه السلام- شخصية ثابتة على الحق والبر، فخاطب أباه بمنتهى الأدب، إذ جاء خطابه لأبيه في الآية الثانية، كأنه يقول:- "يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة، أن تسجد لولدك، إلا إن هذا أمرٌ أمرت به، وتكليفٌ كُلفت به، فإن رؤيا الأنبياء حق"<sup>(١)</sup>.

و (الناء) في قوله تعالى (يا أبت) عوض عن الياء، إذ الأصل (يا أبي) ولذلك لا يجتمعان، فلا يقال:- (يا أبتى)؛ لئلا يجمع بين العوض، والمعوّض عنه، وقد عدل عن هذا الأصل إلى ما عليه النظم الكريم للمبالغة والإشادة بمعنى الأبوة، والإشعار بما يجب لها من تقدير وتعظيم. واستعمل في ندائه لأبيه (يا) التي للبعيد، مع أنه بجواره للإشعار برفعته، وعلو منزلته عنده، وتهيئة ذهنه للخبر الذي سيلقيه إليه، وقال في نظم الدر:- " (يا أبت): (هذا تاويل رؤياي) [يوسف: ١٠٠] استلذاذاً بالخطاب بالأبوة"<sup>(٢)</sup>.

٣- التَّوَدُّدُ وَالتَّحَنُّنُ : ويندرج تحت لواء هذا المعنى الشفقة والترفق والتحبب. وهذا المقصد الأسلوبى يليق بمقام الأبوة الصادقة، كما ورد على لسان يعقوب في مواضع ثلاثة:- الأول في قوله تعالى:- (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ) [يوسف: ٥] وفي هذا النداء شفقة على ابنه يوسف، والتصغير كما يقول النحاة للتحبب لصغر السن. "و (يا بني) إشارة إلى أن يوسف -عليه السلام- هو في سن مبكرة، ومن ثم فهو على عتبة محطات كثيرة متباعدة زماناً ومكاناً، فتصغير الابن لها دلالتها في السن المبكرة إضافة إلى التودد والمحبة"<sup>(٣)</sup>.

والنداء في (يا بني لا تقصص) مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذهن، اهتماماً بالغرض المخاطب فيه، وهو دلالة على أهمية النهي بعدم القصص على إخوته؛ لأن الأمر ذو شأن، فيبادر إلى الإجابة والامتثال.

أما الموضع الثاني للنداء فهو على لسان يعقوب، مخاطباً أبناءه (يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) [يوسف: ٦٧] والموضع الثالث (يا بني اذهبوا فتحصنوا من يوسف وأخيه) [يوسف: ٨٧].

ويظهر من نداء يعقوب -عليه السلام- لأبنائه في الموضعين، دلالة الرقة والملاطفة، وشدة الحب لهم، والعناية بهم، وناداهم بأداة النداء البعيدة، لشدة تربيته لهذا الأمر الجليل مع ما في ذلك من إشعار بعلو منزلتهم عنده.

<sup>(١)</sup> الألوسي: روح المعاني، ٥٦/١٣.

<sup>(٢)</sup> البقاعي: نظم الدرر، ٢١٧/١٠.

<sup>(٣)</sup> أبو حمدة، محمد علي: في التلويح الجمالي لسورة يوسف، ط ٢، دار البشر - عمان، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ص ٣١.

وتتمثل دلالات التلطف والتودد والتحبب في قوله تعالى على لسان يوسف منادياً صاحبيه السجينين (يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) [يوسف: ٣٩] وقوله تعالى: (يا صاحبي السجن أما أخذكم فيسقي ربّه خمراً وأما الآخر فيصنّب فتأكل الطير من رأسه) [يوسف: ٤١]، والصحبة ملازمة اختصاص، "وناداهما باسم الصحبة، بالأداة التي تقال عند ماله وقع عظيم في النفوس، وفي المكان الذي تخلص فيه المودة، وتتمخض فيه النصيحة، وتصفى فيه القلوب، ويعتمد الإخلاص رجاء الخلاص" <sup>(١)</sup> وفي نداءه لهما "ترفق وتحبب وإيناس" <sup>(٢)</sup> ولعل في نداءهما حثاً لهما على الإقرار بالحق، كأنه قال لهما: يا ساكني هذا المكان الشاق و (يا) للنداء السعيد، للإشارة إلى غفلتهما وهيمانتهما في أودية الضلال، "وقد تلتطف -عليه السلام- بهما من ردهما إلى الحق، وإرشادهما إلى الهدى، حيث أبرز لهما مما يدل على بطلان ما هما عليه، بصورة الاستفهام؛ حتى لا تنفر طبائعهما" <sup>(٣)</sup> و يفهم من النداء معنى الإلتماس؛ لأنه كان طلباً برفق، وفي الآية (٤١) يفيد التذكير ليقاظ الفطرة السليمة لدى السجينين، وتكرار النداء تأكيد لما قرره.

وتظهر دلالة التعظيم -أيضاً- في الآيات الكريمة، على لسان "الإخوة" منادين والدهم:

- ١- (يا أبانا ما لك لتأمننا على يوسف) [يوسف: ١١]، ٢- (يا أبانا إنا ذهبنا نستيق) [يوسف: ١٧]
- ٣- (يا أبانا منع منا الكيل) [يوسف: ٦٣]، ٤- (قالوا يا أبانا ما ينبغي) [يوسف: ٦٥]، ٥- (فقلوا يا أبانا إن ابنك سرق) [يوسف: ٨١]، ٦- (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) [يوسف: ٩٧].

فالأبناء نادوا والدهم مع كونه حاضراً، لأن المقصود الاهتمام بالخبر، الذي سيلقى إليه في كل نداء على حدة، مع اهتمام بالمخاطب وتعظيم له، واستعطافه لتحقيق ما يريدون.

ففي المواضيع الستة خاطبوه -عليه السلام- بلفظ الأبوة، استعطافاً له، وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء، وتوسلاً بذلك إلى إتمام ما يريدونه.

فالنداء الأول جاء في موقف إرادتهم أن يتسببوا بإنزال أبيهم عن رأيه، عندما رفض إرسال يوسف معهم فذكروه بما ينبغي أن يكون عليه الأب من حنان على أبنائه. والحقيقة أن الأبناء اتخذوا هذا النداء وسيلة لإغراء والدهم ليسمح لهم باصطحاب يوسف، والكيد به.

أما النداء الثاني فقد جاء عقب عودتهم إلى أبيهم عشاءً ليكون بكاءً متصنعاً دون يوسف، بعدما سمح لهم بأخذه، وأكدوا له حفظهم لأخيهم يوسف. ويشعر هذا النداء باستغلال الأبناء السييء لمعنى الأبوة ودفعاً للتهمة عن أنفسهم، بعدما فعلوا بيوسف ظلماً وحسداً بإلقائه في غيابة الجب، وتركه وحيداً فيه.

<sup>(١)</sup> البقاعي، نظم الدرر، ٨٧/١٠.

<sup>(٢)</sup> قطب، سيد: في ظلال القرآن، ١٩٨٩/٤.

<sup>(٣)</sup> ابن كمال باشا: تفسيره، ص ١٧٥.

أما النداء في الآيتين (٥٣) و (٥٦) فقد جاءوا بهما في سنوات الجذب والقحط. وكانوا مضطرين للعودة إلى مصر، وإلا هلكوا، ولكن الحصول على الطعام هذه المرة. لن يتم إلا بحضور بنيامين، ليتأكد عزيز مصر من صدقهم، وبالتالي لا بد من استعطاف والدهم في هذا الأمر، لا سيما وأن يعقوب -عليه السلام- قد آمنهم على يوسف من قبل، ولكنهم غدروا به.

أما النداء في الآية (٨١) فجاء على لسان كبير الإخوة، يوصي إخوته بالعودة إلى والدهم، وإخباره بما حصل على وجه الحقيقة.

كذلك النداء في الآية (٩٧) بعد أن كشف لهم يوسف عن نفسه، وطلب منهم أن يعودوا إلى أبيهم يعقوب -عليه السلام- ليحضره إلى مصر.

وهذا الموقف يتطلب منهم مزيداً من التوسل والانكسار والاستعطاف، ولذلك نادوه بعنوان الأبوة، تحريكاً للعطف والشفقة المتفرع من دلالة التعظيم، وعللوا ذلك بقولهم (إنا كنا خاطئين).

وقد انحرف النداء المشتمل على أسلوب (يا أيها) للإكبار والتعظيم، إذ ورد على لسان الإخوة، في نداءهم لعزيز مصر - يوسف عليه السلام- في آيتين: - الأولى -: قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا) [يوسف: ٧٨] "ومعناها: - يا أيها الملك القادر المنيع، فهذا النداء استعطاف وتذلل ليوسف"<sup>(١)</sup>، يليق بالأكابر، ليرق لهم"<sup>(٢)</sup>.

أما الآية الثانية ففي قوله تعالى: (يا أيُّها العزيرُ مسناً وأهلنا الضرُّ وجننا ببضاعةٍ مزجاةٍ) [يوسف: ٨٨].

فالنداء في الآيتين خرج دلاليّاً إلى معنى التعظيم ليوسف، واستعطافه، فقول الإخوة (مسناً وأهلنا الضر)، فجّر عواطف الشفقة لدى يوسف، فكلمة (وأهلنا) تذكره حتماً بأبيه يعقوب -عليه السلام-.

"ويتميز أسلوب (يا أيها) بعناصر لغوية ذات تأثير في اللفت والايقاظ، فـ (أي) التي للإبهام و (ها) التي للتببيه، وهي أكثر أساليب الاستفهام وروداً في القرآن الكريم"<sup>(٣)</sup>، "وسر النداء بهذه الطريقة للتأكيد والمبالغة"<sup>(٤)</sup>.

وتلاحظ دلالات التعظيم والتحبب في قوله تعالى: (يوسفُ أيُّها الصديقُ) [يوسف: ٤٦]، فيوسف منادى حذف أداة النداء له، وهذا يدل على أنه قريب محبوب، وزاد في التحبب قول الفتى ليوسف؛ (أيها الصديق)، أي "البليغ في الصدق؛ لأنه جرب أحواله في مدة إقامته معه في

(١) الرميشري: الكشاف، ٤٦٤/٢.

(٢) القاسمي: نظم الدرر، ١٨٠/١٠.

(٣) أبو موسى، محمد: دلالات التراكيب، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٤) أبو موسى، محمد: من أسرار التعبير القرآن، دار الفكر العربي، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، ص ٥٠.

السجن"<sup>(١)</sup>. وفي النداء إشارة إلى أنه ينبغي للمستفتي أن يعظم المفتي، فتقديم اسم يوسف دالٌّ على إختصاص يوسف بالصدق، ومن هذا جاءت دلالة التعظيم.

وقد تجلت دلالة الإكبار والتعظيم، في نداء الملك لأشرف دولته كما ورد في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ) [يوسف: ٤٣] لا سيّما في الأمور الخطيرة، والتعبير عن الإفتاء لتشريفهم، وتفخيم أمر رؤياه.

ومن الأغراض البلاغية للنداء في سورة يوسف، التقريب والتلطيف كما في قوله تعالى: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) [يوسف: ٢٩]. وقد استمد معنى النداء من حذف حرف النداء، لأن هذا الحذف أشار إلى "معنى التقريب والملاطفة؛ لأنه منادى قريب مفاطن للحديث، وفيه تقريب لمحلّه"<sup>(٢)</sup>.

ومن المقاصد الأسلوبية للنداء أيضاً: الفرح والابتهاج والبشارة، كما في قوله تعالى: (قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) [يوسف: ١٩]. وقد وردت هذه المقاصد في نداء الوارد الذي وجد يوسف في الجب، فقال: يا فرحتاه، أو يا قوم، أبشروا بهذا الذي لقيناه، "فالنداء تبشيرٌ لمن حضر، وهو أوكد من قولك: "بشرته"<sup>(٣)</sup>.

وقال الزركشي: - "قالوا معنى النداء فيما لا يعقل، تنبيه المخاطب، وتوكيد القصة"<sup>(٤)</sup>. "ونداء البشري مجاز، لأن البشري لا تتأدى، ولكنها شبهت بالعاقل الغائب الذي احتيج إليه، فينادى كأنه يقال له: هذا أوان حضورك، فنداء البشري لمعنى الفرح والابتهاج"<sup>(٥)</sup>.

ومن أمثلة نداء ما لا يعقل في السورة الكريمة، نداء الأسف الذي جاء على لسان يعقوب - عليه السلام - في قوله تعالى: (يَا أَسْفَا عَلَى يُونُسَ) [يوسف: ٨٤] فأنحرف إلى معنى بلاغي وهو الاستفجع والندبة، "فالأسف أشد الحزن على ما فات، والمعنى: - يا أسفي تعال فهذا أوانك، والألف بدل من ياء المتكلم للتخفيف، ونداء الأسف للتعجب"<sup>(٦)</sup>. وقال الزمخشري: "أضاف الأسف وهو أشد الحزن والأسى إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة، والتجانس بين لفظتي يوسف، والأسف. مما يقع مطبوعاً غير متعملاً، فيُملح ويُنذع"<sup>(٧)</sup>.

(١) الألويسي: روح المعاني، ٤٤٣/١٢.

(٢) الزمخشري: الكشاف، ٤٣٥/٢. أبو حيان: البحر المحيط، ٢٩٨/٥.

(٣) الشوكاني: فتح القدير، ١٣/٣.

(٤) الزركشي: البرهان، ٣٥٣/٣.

(٥) الزمخشري: الكشاف، ٤٢٦/٢، وبنظر ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٤١/١٢.

(٦) الزركشي: البرهان، ٣٥٣/٣.

(٧) الزمخشري: الكشاف، ٤٦٨/٢.



ونداء الأسف مجاز، نزل الأسف منزلة من يعقل، فيقول له: - احضر هذا أو ان حضورك، على سبيل الاستعارة المكنية ويمكن اعتبار هذا النداء " للندبة، لأن القصد منه إظهار التفجع على من هو في حكم الميت، وإظهار التوجع من شيء يؤلم"<sup>(١)</sup>.  
ويظهر بعد استعراض المعاني البلاغية للنداء، أن هناك انسجاماً واتساقاً بين المعنى البلاغي، والشخصية التي جاء على لسانها.

---

(١) الأنصاري، ابن هشام: أوضح المسالك، نج. محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥، دار الفكر، ١٣٨٦، ١٩٦٧، ٥٢/٤.

## الختامة

وبعد ... فقد درستُ في هذا البحث " النظم القرآني في سورة يوسف - عليه السلام - " وقد بدأتُه بمقدمة تناولت فيها أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، وكيفية تقسيم البحث، وأهم المصادر والمراجع التي أفدت منها.

ثم مهدت للبحث بدراسة موجزة عن السورة الكريمة، فتناولت اسمها، ومناسبتها، والكتب التي ألقت عنها، ودراساتي وما فيها من جديد لا سيما في الجانب التطبيقي من الدراسة. انتقلت بعد ذلك إلى الفصل الأول؛ الذي جعلته دراسةً نظريةً، أوجزت فيه الحديث عن تعريف النظم لغةً واصطلاحاً، وجهود السابقين - لعبد القاهر - فيه، واكتماله على يدي عبد القاهر الجرجاني، ليصبح نظريةً متكاملةً، وامتداده ليصبح علم المعاني، وأخيراً ذكرت آراء الباحثين المعاصرين في نظرية النظم، وأهميتها في الدراسات اللغوية والنقدية الحديثة). ومن أهم نتائج هذا الفصل:

- ١- أن لفظ "النظم" في أصل وضعها اللغوي كانت دلالة مادية محسوسة تتعلق بترتيب الخرز واللؤلؤ في السلك، ثم تطورت إلى الدلالة المعنوية التي تعني ترتيب الكلام.
- ٢- إن فكرة النظم عربية محضة، ولدت في أحضان القرآن الكريم، ثم تطورت هذه الفكرة لتصبح نظريةً متكاملةً تعنى بإعجاز القرآن الكريم.
- ٣- إن الفضل في نظرية النظم مشترك بين القدماء وعبد القاهر الجرجاني، غير أن عبد القاهر استطاع أن يربط النحو بالبلاغة، فما البلاغة إلا ثمرة من إقامة قانون النحو وقاعدته، فتعليل الظواهر النحوية يؤدي إلى أسرار بلاغية عميقة الدلالة، وعلى ذلك فإن فهم البلاغة القرآنية لن يتحقق إلا بفهم النحو وقانونه.
- ٤- ربط النقاد المعاصرون بين نظرية النظم، والدراسات الأسلوبية الحديثة، بل وصل الأمر ببعض النقاد إلى اعتبار نظرية النظم سابقة لأحدث ما وصل إليه علم اللغة الحديث؛ لأن عبد القاهر أخرج النحو العربي من البحث الشكلي إلى الاهتمام بالبناء التركيبي وما يؤديه من دلالات وفق القرائن والأحوال، وبالتالي فإن منهج عبد القاهر جديرٌ بالإحياء من جديد، وأزعم أن هذا البحث جاء محاولةً متواضعة لإحياء هذا المنهج عن طريق توظيف بعض مباحثه في سورة يوسف - عليه السلام - .

وجعلت الفصولين الثاني والثالث دراسةً تطبيقيةً لأساليب تتصل بالجملة الخبرية، وأساليب تتصل بالجملة الإنشائية الطلبية، درستُ منها أساليب (التوكيد، والتكثير، والتعريف، والتقديم

- والتأخير، والحذف، والأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء). ومن نتائج هذين الفصلين:
١. اعتمدت السورة الكريمة على الأساليب الخبرية والانشائية على حد سواء، وإن كان ورود الخبر أكثر من الإنشاء، غير أن نظم السورة الكريمة كشف عن التألف والتناسق بين هذين الأسلوبين لتحقيق أهداف القصة في السورة الكريمة في العبرة والموعظة.
  ٢. استخدم القرآن في سورة يوسف أسلوب التوكيد، وقد لوحظ أن التوكيد بـ (إن) كان له مزية في النظم والصياغة فضلاً عن ورودها بكثرة. وقد حقق أسلوب التوكيد أغراضاً بلاغية منها التعظيم والتعجب، والتأنيس، والبشارة، .....، وهذه الدلالات تليق بمقام نبي الله يوسف -عليه السلام- في مراحل حياته.
  ٣. شاعت النكرة في سورة يوسف بكثرة، وقد حققت أغراضاً بلاغية منها، الوحدة، والتكثير، والعموم، وكان أهمها غرض التعظيم الذي يتناسب مع شخصية يوسف -عليه السلام-.
  ٤. كشف أسلوب التعريف من خلال معانيه البلاغية عن علو منزلة يوسف -عليه السلام-، وقد تنوع هذا الأسلوب باسم الإشارة، والاسم الموصول، والمعرف بـ(أل)، والإضافة، وقد حملت هذه الظاهرة اللغوية دلالات برز منها، التعظيم، والتقدير، والاختصاص، والكمال، والعهد، والعموم.
  ٥. أفاد أسلوب التقديم والتأخير -من خلال سياقاته النظمية- دلالات بلاغية، كالعناية، والاهتمام، والتشويق إلى المؤخر، وقد برزت - بشكل لافت- ظاهرة تقديم المتعلقات (الظرف، والجار والمجرور)، التي أدت غرض الاختصاص.
  ٦. شكّل أسلوب الحذف ظاهرة أسلوبية بارزة استهدف القرآن منه الإيجاز، ولأجل تحقيق أغراض التعظيم، والمدح، ويعمل الحذف على إثارة المتلقي لبيقيه متشوقاً للاستمرار في متابعة الأحداث، وقد تنوع هذا الأسلوب من حذف الحرف، إلى الكلمة، إلى الجملة، وبدا حذف الجمل والمشاهد ملمحاً بارزاً، يعود إلى أسلوب القرآن المعجز، وطابع السورة القصصي. واستقصاء ظاهرة الحذف في السورة تحتاج إلى دراسة مستقلة.
  ٧. تنوعت أغراض الأمر في السورة الكريمة، بناءً على السياق النظمي الذي جاء فيه، ومن هذه الأغراض، الدعاء، والنصح والإرشاد، والإكرام، والتشويق، والالتماس، وغيرها. كما جاءت الجملة الدعائية التي سبقت على لسان يوسف -عليه السلام-

- مسبوقة بأسلوب النداء، لما في ذلك من تعظيم جلال الله تعالى والثناء عليه، ولشعور يوسف ويقينه بالقرب الشعوري من الله سبحانه وتعالى. كذلك كشف فعل الأمر البلاغي عن التحول السلبي الذي أصاب الإخوة من القوة إلى الضعف.
٨. حقق أسلوب النهي الذي جاء على لسان يعقوب -عليه السلام - دلالة النصح والإرشاد، وهي دلالة منسجمة مع شخصيته بوصفه نبياً .
٩. استخدم القرآن أسلوب الاستفهام ليحقق أغراضاً أسلوبية، كان من أبرزها غرض الإنكار، والتقرير، والتذكير، والترغيب، والتهديد.
١٠. انحرف أسلوب النداء في سورة يوسف -عليه السلام - إلى دلالات ومقاصد أسلوبية ، كالتعظيم، والطواعية، والبر، والتحبب، والايئاس، والاستعطاف .... وقد اختلف هذا الأسلوب مع الأساليب الإنشائية والخبرية على السواء.
١١. بين البحث أن ثمة اتساقاً وانسجاماً - سواء أكان في الأسلوب الخبري أم كان في الأسلوب الإنشائي- بين طبيعة الشخصية ودورها في الأداء القصصي، والدلالة الأسلوبية المنبثقة من (الأسلوب اللغوي) الذي صدر عنها، بما يتناسب والمقام ومقتضى الحال، وهذا دالٌّ على عظمة نظم القرآن الكريم، وواقعته.
١٢. تبين خلال - البحث - أن هناك ظواهر أسلوبية في السورة الكريمة بحاجة إلى إضاءة، من مثل نظام الربط بين الجمل، والخطاب بالجملة الاسمية والفعلية.
١٣. أوصى بفتح باب الدراسات القرآنية من خلال القرآن الكريم، واستكمال دراسة النظم في سور القرآن؛ لأن الدراسات التطبيقية على نظرية النظم ما زالت بكراً، ومن شأن هذه الدراسات أن تمكننا من فهم بلاغة القرآن جملة واحدة.

وأسأل الله العظيم أن يجعل هذا الجهد المتواضع في ميزان حسناتي يوم ألقاه، وأن يثيبَ من أشرف عليه، والله الحمد من قبل ومن بعد، وصلى الله على أعظم المرسلين نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن استن بهديه إلى يوم الدين.

## ملخص باللغة العربية

يتناول هذا البحث الذي يقع في ثلاثة فصول (سورة يوسف -عليه السلام- دراسة أسلوبية) مستفيداً من التراث البلاغي، ومستنداً إلى نظرية النظم التي أرسى قواعدها عبد القاهر الجرجاني.

وتتميز هذه الدراسة بأنها دراسة تطبيقية لعناصر تتصل بالنظم الذي أدار عبد القاهر إعجاز القرآن عليه، وهذه الدراسة التطبيقية جديدة في الدرس البلاغي، لأنها تقوم بحصر الظاهرة اللغوية الموجودة في السورة، وتحليلها بلاغياً عن طريق الكشف عن المقاصد الأسلوبية في آيات سورة يوسف، مستفيداً من المعاني الجزئية التي تطرق لها بعض المفسرين، فمن مهمة البحث جمع المتفرق، وترتيبه، ودراسته، وتفصيله.

وجمع الباحث الآيات بناءً على الظاهرة اللغوية لها، ثم عالج مجمل الظواهر الأسلوبية فيها وما تحققه من معانٍ ثانية، ودلالات عميقة تفوق مجرد بنائها اللغوي.

وكشف البحث عن مدى الانسجام والاتساق بين طبيعة الشخصية التي جاءت الآية على لسانها، والدلالة البلاغية المنبثقة عن سياقها النظمي.

وخرج الباحث بنتائج، منها إثبات روائع الإعجاز النظمي للقرآن من خلال هذه السورة، وانسجام الأساليب الخبرية الإنشائية في تحقيق الدلالة المقصودة في نفسية المتلقي.

كما أن دراسة النظم القرآني، تقع في القمة العليا من حيث القيمة في الدراسات البلاغية.

## Abstract

This research, which falls into three chapters dwelt on The Holy Qur'an's chapter of Joseph, peace be upon him: A stylistic study. In the study, the researcher made active use of rhetorical tradition and systems theory put forward by Abdel-Qader - al Jorgani.

It is an applied study of elements related to al Jirganils systems used to prove the miracle of the Holly Qur'an. This is a new applied study in rhetorical lesson because it identified the linguistic phenomenon in the chapter of Joseph. In its rhetorical analysis, the study revealed stylistic purposes in the verses of the chapter.

In so doing, the researcher utilized and dwelt on meaning tackled by the Holy Qura'n exegetists. The researcher collected the variations, ordered them, studied and detailed them. The researcher collected the verses, or a representattive samplr, based on their linguistic phenomenon, analysed all stylistic phenomena, their secondary meanings, and their deep meanings which go beyond their linguistic structure. The study revealed the degree of harmony and consistency between the nature of the personality, expressed by the verses, and the rhetorical meaning stemming from the verses, systematic context.

One conclusion of the study is the proof of the wonderful systematic miracle of the Holy Qur'an as revealed in the Joseph chapter . Another finding was the harmony of prose style story telling telling method to achieve the intended meaning in the receiver's, (reader's) psyche. The study of the Qur'anic systems comes in terms of value, at the top, of rhetorical studies.

# قائمة المصادر والمراجع

من الطبيعي أن يكون القرآن الكريم مصدرى الأول، في هذا البحث.

## أولاً - المصادر:

- ١- الأمدى، الحسن بن بشر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- ٢- الأسد أبادي، عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: أمين الخولي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- ٣- ابن الأنباري، أبو البركات: عبد الرحمن بن محمد: "أسرار العربية" دراسة وتحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٤- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف: تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- ٥- الباقلائي، أبو بكر: إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م.
- ٦- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- ٧- التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، مكتبة الحياة، بيروت.
- ٨- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٣٨م.
- ٩- الجرجاني، الشريف علي: التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.



- ١٠- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- ١١- الجرجاني، محمد بن علي: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق: عبد القاهر حسين، دار نهضة مصر، الفجالة، ١٩٨١م .
- ١٢- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .
- ١٣- الجوهرى، اسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت .
- ١٤- ابن دريد، محمد بن الحسن: جمهرة اللغة، مطبعة دائرة مجلس المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط١، ١٣٤٥هـ .
- ١٥- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، ط٧، د.ت .
- ١٦- الرماني، علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، د.ت .
- ١٧- الزجاج، أبو اسحاق إبراهيم بن السري: معاني القرآن وإعرابه، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- ١٨- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- ١٩- الزمخشري، محمود بن عمر:
- أ- أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣١٤هـ - ١٩٢٣م .
- ب- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتخريج: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

- ٢٠- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة د.ت.
- ٢١- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد: مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط١، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.
- ٢٢- سيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م. وكذلك طبعة المطبعة الأميرية الكبرى، القاهرة، ١٣١٦هـ .
- ٢٣- ابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل: المخصص، المطبعة الأميرية، بولاق، ط١، ١٣١٦هـ .
- ٢٤- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعي:  
 أ. الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، د.ت .  
 ب. معتزك الأقران في إعجاز القرآن، تصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٥- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
- ٢٦- أبو عبيدة، معمر بن المثنى: مجاز القرآن، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد سركيس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٤م.
- ٢٧- العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل: الصناعتين: الكتابة و الشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط١، (د.ت).
- ٢٨- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار الخير، دمشق وبيروت، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

- ٢٩- العلوي، يحيى بن حمزة بن علي: كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م.
- ٣٠- ابن فارس، أبو الحسين أحمد: الصاحبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (د.ت).
- ٣١- الفيروز آبادي، مجد الدين بن يعقوب: القاموس المحيط، المطبعة الحسينية، القاهرة، ط١، ١٣٣٠هـ .
- ٣٢- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري: تأويل مشكل القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار التراث، ط٢، ١٩٧٣م.
- ٣٣- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أبي اسحاق إبراهيم طيفيش، ط٢، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م.
- ٣٤- القزويني، جلال الدين، محمد بن عبد الرحمن:  
 أ. الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .  
 ب. شرح التلخيص في علوم البلاغة، شرحه وخرج شواهد: محمد هاشم دويدري، منشورات دار الحكمة، دمشق، ١٩٧٠م .
- ٣٥- ابن القيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت) .
- ٣٦- القشيري، الإمام: لطائف الإشارات، تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم، تحقيق: إبراهيم بسبوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨١م .
- ٣٧- ابن كمال باشا، أحمد بن سليمان: تفسير ابن كمال باشا، تحقيق: أنور محمد أرب من خلال تحقيق سور هود ويوسف والرعد، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

- ٣٨- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- ٣٩- مسلم، أبو الحسن القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
- ٤٠- ابن المقفع، عبد الله: الأدب الصغير، تحقيق أحمد زكي باشا، نشر جمعية العروة الوثقى، الخيرية، ط١، ١٩١١م .
- ٤١- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
- ٤٢- ابن هشام الأنصاري، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف:
- أ. أوضح المسالك على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط٥، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م .
- ب. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: حنا الفخوري، بموازنة الأستاذين: وفاء الببائي وربيع الحونى، دار الجبل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- ج- مغنى اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- ٤٣- الواحدى، أبو الحسن علي بن أحمد: أسباب النزول. دار الفكر، د.ت.

## ثانياً - المراجع:

- ٤٤ - الألويسي، محمود شكري أبو الفضل: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، تحقيق: عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .
- ٤٥ - أنيس، إبراهيم (دكتور) :  
من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، (د.ت) .
- ٤٦ - باجودة، حسن محمد (دكتور):  
الوحدة الموضوعية في سورة يوسف - عليه السلام -، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٣م .
- ٤٧ - بدوي، أحمد أحمد (دكتور) :  
أ. عبد القاهر وجهوده في البلاغة العربية، مكتبة مصر، (د.ت).  
ب. من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ط٣ .
- ٤٨ - الجندي، درويش (دكتور) :  
نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ١٩٦٠م .
- ٤٩ - حسان، تمام (دكتور) :  
أ. البيان في روائع القرآن، عالم الكتب القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .  
ب. اللغة العربية (معناها ومبناها)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م .
- ٥٠ - حسين، عبد القادر (دكتور) :  
أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر - الفجالة، ١٩٧٠م .
- ٥١ - أبو حمدة، محمد علي (دكتور) :  
في التذوق الجمالي لسورة يوسف، دار البشير، عمان، ط٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
- ٥٢ - الحمصي، نعيم : فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

- ٥٣- الخطيب، عبد الكريم: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٥٤- الدبل، محمد بن سعد: النظم القرآني في سورة الرعد، دار النصر للطباعة، القاهرة، ١٩٨١م
- ٥٥- دمشقي، الشيخ عبد الله العلمي: مؤتمر تفسير سورة يوسف، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- ٥٦- الرفاعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآني والبلاغة النبوية، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٧، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- ٥٧- السامرائي، إبراهيم: الأساليب الإنشائية في العربية - النمط والاستعمال، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٨٧م .
- ٥٨- سلطان، منير (دكتور):  
بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٣م.
- ٥٩- سلام، محمد زغلول (دكتور):  
تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٦٤م.
- ٦٠- السيد، شفيق (دكتور):  
الإحاطة الأسلوبية في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
- ٦١- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراسة في علم التفسير، دار الفكر، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٥٣م.
- ٦٢- شيخ أمين، بكري: التعبير الفني في القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٤م.

- ٦٣- الصالح، صبحي (دكتور) :  
مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين بيروت، ط (٢٠)، ١٩٩٧م.
- ٦٤- ضيف، شوقي (دكتور):  
البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٦٥- طبانة، بدوي (دكتور):  
 أ. البيان العربي، دار المنارة، جدة، دار الرفاعي، الرياض، ط٧، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.  
 ب. معجم البلاغة العربية، دار المنارة، جدة، دار الرفاعي، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٦٦- الطراونة، سليمان، (دكتور) :  
دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ط١، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م.
- ٦٧- ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- ٦٨- عامر، فتحي أحمد، (دكتور):  
 أ. فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٥م.  
 ب. المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٧٦م.
- ٦٩- عباس، فضل، (دكتور):  
 أ. إعجاز القرآن الكريم، بالاشتراك مع سناء فضل عباس، دار الفرقان، عمان، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.  
 ب. البلاغة فنونها وأفانيتها - علم المعاني، دار الفرقان، عمان ط٧، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٧٠- عبد المطلب، محمد، (دكتور): البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

- ٧١- عتيق، عبد العزيز، (دكتور):  
 أ. في البلاغة العربية-علم المعاني، دار النهضة العربية -بيروت -١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.  
 ب. في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية - بيروت - (د.ت).
- ٧٢- العمري، أحمد، (دكتور):  
المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٠هـ،  
 ١٩٩٠م.
- ٧٣- فريد: فتحي عبد القادر (دكتور):  
"من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف -عليه السلام-" ، مكتبة النهضة المصرية،  
 القاهرة، ط (١)، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م .
- ٧٤- فودة، عبد العليم السيد: أساليب الإستفهام في القرآن الكريم، مؤسسة دار الشعب،  
 والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، نشر الرسائل الجامعية،  
 القاهرة، د.ت).
- ٧٥- فيود، بسيوني عبد الفتاح، (دكتور):  
من بلاغة النظم القرآني، مطبعة الحسين الإسلامية -القاهرة - ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- ٧٦- قطب، سيد:  
 أ. التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت.  
 ب. في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، والقاهرة، ط١٥، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.
- ٧٧- مراد، وليد محمد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر  
 الجرجاني، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- ٧٨- مطلوب، أحمد، (دكتور):  
أساليب بلاغية، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، (د.ت).
- ٧٩- مندور، محمد: في الميزان الجديد، مكتبة نهضة مصر - الفجالة، القاهرة، ط٢، (د.ت).



- ٨٠- أبو موسى، محمد، (دكتور):  
 أ. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، دار التضامن، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م.  
 ب. خصائص التراكيب، مكتبة وهبة ودار التضامن، ط٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.  
 ج. دلالات التراكيب، مكتبة وهبة ودار التضامن، القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.  
 د. من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، دار الفكر العربي، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- ٨١- ابن نبي، مالك : الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور، شاهين، دار الفكر، لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ٨٢- نقرة، التهامي (دكتور): "سيكولوجية القصة في القرآن"، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط١، ١٩٤٧م.
- ٨٣- نوفل، أحمد، (دكتور): سورة يوسف دراسة تحليلية، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

## تحت المحتويات

رقم الصفحة	اسم الموضوع	الرقم
أ	الإهداء	١-
ب	شكر وتقدير	٢-
ت-ث	المقدمة	٣-
١	التمهيد	٤-
٢	- اسمها وعدد آياتها	
٢	- أسباب نزولها	
٣	- أسباب عدم تكرارها	
٣	- الدراسات السابقة حولها	
٦	الفصل الأول : (ماهية النظم)	٥-
٧	- مفهوم النظم في اللغة والاصطلاح	
١١	- النظم في الموروث النحوي والنقدي	
١٩	- آراء الباحثين المعاصرين في نظرية النظم عند عبد القاهر	
٢٥	الفصل الثاني :	٦-
٢٥	(من أساليب الجملة الخبرية في سورة يوسف - عليه السلام -)	
٢٧	- التوكيد	
٤٢	- التنكير	
٥٠	- التعريف	
٦٦	- التقديم والتأخير	
٧٦	- الحذف	

٨٧	الفصل الثالث :	-٧
	(من أساليب الجملة الإنشائية الطلبية في سورة يوسف - عليه السلام-)	
٨٩	- الأمر	
١٠٤	- النهي	
١٠٩	- الاستفهام	
١١٨	- النداء	
١٢٤	الخاتمة	-٨
١٢٧	ملخص باللغة العربية	-٩
١٢٨	ملخص باللغة الانجليزية	-١٠
١٢٩	المصادر والمراجع	-١١
١٤٠	ثبت المحتويات	-١٢